الباب الثاني

أغراضه الشعرية

تقديـــــــم

قال الزمخشرى الشعر فى أغراضه التقليدية، من المدح والرثاء والحنين والشكوى والهجاء والفخر والزهد والحكمة والوصف والغزل، إلى غير ذلك من الأغراض التى توارثها الشعراء السابقون عليه .

وإذا كانت المقطعات من شعره تأتى - عادة - فى غرض واحد ، فإن معظم قصائده تعدد الأغرض فيها لاسيما قصائد المدح ، فقد نجد فى القصيدة الواحدة نسيبا ووصفا وشكوى وفخرا وحكما ومدحا، مما يصعب معه تصنيف هذه القصائد ووضعها تحت غرض دون غيره .

ومع هذا فيمكن التعرف على الغرض الأساسى للقصيدة من روحها العام، والمعانى التى تشيع فيها، والغاية التى ترمى إليها ، فالقصيدة التى وجهت إلى ممدوح بقصد المدح أو التهنئة تندرج فى غرض المدح، وإن كان فيها العديد من الأبيات التى يمكن أن تندرج فى أغراض أخرى، تعد حينئذ أغراضا ثانوية .

وعلى هذا الأساس فقد اجتهدت فى تقديم إحصائية لأهم أغراضه الشعرية ، مبينا عدد القصائد والمقطعات التى يمكن أن تندرج تحت كل غرض .

كما حاولت أن أقدم إحصائية بعدد الأبيات التى قيلت فى كل غرض ، مع ملاحظة التداخل بين الأغراض فى بعض الأبيات ، مثل مانجد فى الوصف الذى يتخلل المدح، كأن يصف قلم الممدوح مما يجعل هذه الأبيات أبيات مدح ووصف فى وقت واحد .

وقد اشتمل الديوان على ٣١٢ قصيدة، فيها مايربو على خمسة آلاف بيت، توزعتها الأغراض المتنوعة ،على النحو الذى تبينه هذه الإحصائية :

الغرض	عدد ماياندرج تحته من قصائد أو مقطعات	عدد ماياندرج تحته من أبيات
المدح	١٥٦	٢٣٤٢
الرثاء	٣٣	٥٨٤
الحنين	١٩	١٦٢
الشكوى والهجاء	١٢	١٩١
الفخر	١١	٣٢٢
الحكمة	٧	٢٠٠
الغزل	٦	٧٠٣
الوصف	٤	٢٨١
الزهد	٣	١٠٠

وله إلى جانب ذلك قصائد قيلت فى أغراض أخرى، مثل القصائد التى تمس حياته أو علاقته بأصدقائه، ولكنها لاتمثل أغراضا جديدة لقلتها .

وسأحاول إلقاء الضوء على شعره فى هذه الأغراض التى دار شعره فى فلكها.(!)

١- ترتيب الأغراض فى هذا الجدول اعتمد عدد القصائد والمقطعات فى كل غرض، وجلىّ اننا لو أعتمدنا عدد الأبيات فسوف يتغير الترتيب ليصبح هكذا:

١- المدح ٢- الغزل ٣- الرثاء
٤- الفجر ٥- الوصف ٦- الحكمة
٧- الشكوى والهجاء ٨- الحنين ٩- الزهد.

الفصل الأول

المدح

ظفر هذا الغرض بالنصيب الأكبر من شعر الزمخشرى ، شأنه فى ذلك شأن شعراء عصره، الذين أولوا هذا الغرض اهتماما خاصا، مما جعله يأتى على معظم شعرهم .

ويمكن أن نميز فى مدائح الزمخشرى بين هذه الأنواع :

المدح النبوى – مدح العرب – مدح الأساتذة والأصدقاء – مدح كبار الدولة. فلنجلْ مع كل نوع منها جولة، فى محاولة للتعرف على خصائصه .

المدح النبوى :

وللزمخشرى عدة قصائد فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم(١) ، أطلق عليها «النبويات» وجعلها فى المنزلة الأولى بين قصائده، فجاءت فى ترتيب ديوانه متصدرة ماقيل فى بحرها من القصائد .

ولعل الشاعر اتجه إلى هذا النوع من المدح فى فترة زهده وتنسكه بعد أن انصرف عن الدنيا ، وصدف عن مدح رجال الدولة ، واتجه إلى الله بكل أعماله وأحاسيسه ، فكان هذا المدح النبوى تعبيرا صادقا عما أحس به فى هذا الطور من حياته .

وفى بعض هذه القصائد مايؤكد أنها من نتاج هذه الفترة ، من ذلك توسله بكتابه «الكشاف» والحديث عن كبر سنه وشيب رأسه .

وفى هذه المدائح تطالعنا عاطفة جياشة تفيض حبا للرسول صلى الله عليه وسلم وإجلالا لقدره ، وإكبارا لجهاده ، وتعظيما لصحابته ، وتقديسا للدين الذى بعث هاديا إليه .

١– الديوان: القصائد رقم ١ ، ٢ ، ٩٩ ، ١٥٩ .

وفى هذه القصائد تشابه فى البناء فهى - بصفة عامة - تبدأ بالنسيب، ثم تنتقل منه إلى شعر دينى فيه تزهيد فى الدنيا وحث على التقوى وصالح العمل واتباع ما جاءت به الرسل ، ثم تنتهى إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وفى معظم قصائده يتحدث عن فضله على جميع الرسل والخلق، وطهارة نسبه، وكرم نفسه ، وحميد خلقه ، وجهاده فى سبيل الدعوة ، ومعاداة الكفار له وماكان له من نصر عليهم بتأييد الله ، كما يتحدث عن صحابته الذين التفوا حوله مجاهدين فى سبيل إعلاء كلمة الله ، فإذا انتهى من ذلك ختم قصيدته بأبيات يتشفع فيها بالرسول متوسلا بصدق إيمانه ، وسلامة عقيدته ، وصفاء سريرته، وحسن طاعته ، ومؤلفاته التى ابتغى بها وجه الله ، وخدمة دينه .

ومن ذلك ماقاله فى نبويته[1] التى عارض بها مدحة كعب بن زهير :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبولُ متيم إثرها لم يفد مكبول

وقد استهلها الزمخشرى بأبيات فى النسيب فقال :

أضاء لى باللوَى والقلبُ متبول نجدى برق بنار الحب مَوْصولُ

كأن ومضته من ناره قَبَسٌ فالخد منه بماء الشوق مهطولُ

ثم ينتقل منه إلى الشعر الدينى موجها ومرشدا إلى خير الإنسان، فيقول :

وشر ما أوضع الانسان فيه هوى على خلاف الهدى قافيه مدلولُ

والفعلُ أرضاه عند الله أعرفهُ وماتناكره الألباب مرذولُ

ثم يخلص من ذلك كله إلى مدح الرسول، فيقول :

والحق فالحقُّ ماجاء الرسولُ به سيفٌ على هام أهل الشرك مسلولُ

والفضل فضل نبىٍّ من بنى مُضَرٍ إليه أفضلُ خلق الله مفضولُ

محمد إن تصفْ أدْنَى خصائصِه فيا لها قِصةٌ فى شرحها طولُ

١- الديوان: القصيدة رقم (٩٩) .

أبو العباد وعبدُ الله بينهما | له مصاصٌ من الأنساب منحولُ
تالله مالاقه صلْبٌ ولارحِمٌ | إلا على الطهر والإنجاب مجبولُ

ثم يقول عن الصحابة:

حفته أشياعُ صدق كالليوث بهم | دمُ الذين استضاموا الدين مطلول
إذا جرى ذكرهم رف القلوب له | كما يرف الخزامى وهو مطلول

ثم يختم القصيدة بأبيات الشفاعة والرجاء والتوسل ومنها:

ياخاتم الرسل إن الطول منك على | راجى الشفاعة يوم الحشر مأمول
فهل يصيبُ فتى لاحبلُ ذمته | واه ، ولاعقده فى الصدق محلول
ولا اشتكت دخَلاً منه مناصحة | ولامناصح إلا وهو مدخولُ
ما مست الكأس يمناه ، ولاصدمت | فاه ، وكلهم بالراح مَعْلولُ

مدح العرب :

تجلى فيما سبق ماكان من حب الزمخشرى للعرب وتعظيمه للغتهم مما جعله ينتصر لهم ويدفع عنهم أباطيل الشعوبيين ، ولم يكن افتتانه بالصفات العربية الأصيلة السبب الوحيد فى هذا الحب لهم والانحياز نحوهم ، بل كان هناك سببان آخران من الأهمية بمكان ، أولهما : أن الله سبحانه وتعالى قد اختار أجل رسله منهم، وثانيهما أن الله قد أنزل أجل كتاب بلسانهم ، فهم خير أمة ولسانهم خير لسان .

وله قصيدة طويلة سماها «العربية»(١) أشاد فيها بصفات العرب وأخلاقهم ونوه بأفضليتهم على غيرهم من الأمم ، ورد على الشعوبيين أضاليلهم ، ونعى عليهم ضعف مذهبهم ،وحماقة من يدين به .

وفى هذه القصيدة يقول مشيدا بصفات العرب :

١- الديوان: القصيدة (٣) .

من العرب الصيد الألى أحرزوا العلا وطابت لهم أعراقهم والمغارسُ

غطارفةٌ شمٌ تربوّا أعزة فماشم ريحَ الذُلّ منهم معاطسُ

وللّعربُ العرباءُ أصلبُ نبعةً وهل يستطيع الحز فى النبع ضارس؟

فيا أمة لو يشعر الصخرُ بالذى تمارس ضج الصخر مما تمارس

إباءٌ إباءَ الخيل وهْىَ شوامِسٌ وصبر كصبر الهيم وهى خوامسُ

ويذكر هزيمتهم للفرس فيقول :

وهمْ فرسوا أبناء فارس كلُّهمْ بأنيابهم وهْىَ الرماح الّداعِسُ

ومصلتةٍ مازال يُطْلَى بياضُها بماء الطُّلى مافارقتها المداوسُ

وهم سلبوا التيجان هامَ ملوكهم ولم يقفلوا عنهم وفارس فارس

وعن شرف العرب وترفعهم على الفرس يذكر ماكان بين النعمان وكسرى فيقول :

وعن صهر كسرى صدَّ نعمانَ بأوُه فخنّقَه فى خانقينَ الفوارسُ

وهان عليه يومهُ قبل ساعة يكابدِ فيما صِهْرَ من لايجانسُ

ثم يستشهد على فضل العرب فيقول :

وقل هل فشا فى الأرض غيرُ لسانهمْ لِسانٌ فشوٌ الضوء واليومُ شامسُ

به عجٌ فى أمصارها كلُّ منبر وطنت به فى الخافقَيْنِ المدارسُ

على ظهرها لم يخلق الله أمةً تناسبهم فى خَصْلةٍ أو تلابسُ

يُقايَسُ بين الناس حتى إذا انتهى إلى العرب القيّاس طاح المقايس

وواحدةٌ تكفيك هاتيك حجةً بساطعها تنشق عنك الحنادس

أجل رسول منهمُ وبلِسْنهمْ أجل كتابِ فاعتبر يامنافِسُ

ثم يختم القصيدة بقوله للشعوبيين :

وقل للشعوبيين : إن حديثكمْ أضاليلُ من شيطانكم ووساوسُ

لكم مذهبٌ فل يعز بمثله أشائبُ حمقى لا الرجال الأكايسُ

ولم يقتصر مدحه للعرب على قصيدته« العربية »، بل إنه قد يأتى فى ثنايا القصائد ، فحين يضيق بالحياة مع لئام الناس يتطلع إلى الحياة فى مكة؛ ليعيش بين العرب كرام الأصل والخلق؛ وذلك فى قوله :

ألا قولى لمكة ترتجعنى فإن فعلتْ فدام الإرْتجاعُ

أياطيرَ الأباطح بشرينى أيُقْضَى لى مع العرب اجتماعُ

مع الزهر الكرام بنى لؤى همُ للأرض مجدهمُ طلاعُ

صلابُ النبْعِ ما نصبوا لمكر حبائلهم ولافيهم خداعُ

مقاولِهُم وإن فصحوا مقالا مناصِلُهم اذا حضر الوقاعُ(١)

ثم يستمر فى الإشادة بهم .

مدح أساتذته وأصدقائه:

كان الزمخشرى عظيم الإكبار لأساتذته ، شديد الوفاء لهم ، يفخر بتلمذته لهم، و يعدّد مناقبهم.

وكان أستاذه فريد العصر أبو مضر أحب أساتذته إليه ، لأنه كان أعظمهم أثرا فى حياته، كما سبق توضيح ذلك .

وقد عكس شعر الزمخشرى ماكان يكنه لهذا الأستاذ من حب وتقدير فى حياته، وماظل يحفظه له من وفاء وعرفان بعد وفاته ، وكانت له فيه مدائح ومراث تعد من جيد شعره، حيث تصدق العاطفة وتتأجج المشاعر ، ومن ذلك قوله فى قصيدة طويلة يمدحه بها ، ويشتاق إلى لقائه :

ولهفى على عصر تقضى مناسب سجايا فريد الدهر أو وجهه الطلْقا

هو المرتضَى وجها وخلْقا ، وإننى لأشتاقُ ذاك الوجه بل ذلك الخلْقا

١- الديوان ٢٧٤ .

إذا الريح من شرقىّ مرو تنفستْ فيا بردَ صدرى حين أنشقُها نشقا
ومايطّبينى الأيك إلا لأننى أساعد فى الشجو الحمامَ به الوُرْقَا
وإن عصفتْ ريحُ الشمال ذكرتهُ وإسراعهُ نحو المكارم والسبقَا
ويبعث أشجانى الفضاءُ ؛ لأنه حكى صدره رُحْباًوهمته سَحْقا
وتمرى مآقىَّ الغوادى ؛ لأنها تضاهى يديه كلُما دفقتْ دَفْقَا
وإن مدجيحون تذكّرتُ فيضه بما يغمر الأذهان والألسُنَ الذلْقا
وليس بسيطُ البحر إن قستَه به بسيطا ، ولافى جنبه عمقُه عُمقا
تصاممتُ أن قالوا كَسيْفِ لسانُه فلستُ بمن يصغى إلى خطل الحمقَى
هبوا أنّ حد السيف غربُ لسانِه فهل لصليل السيفِ أن يُشبه النُّطْقا
وأكملَ دون العالم اللهُ رزقَه من العلمِ إن العلمَ أحسبَهُ رزقا
محيط بأطراف الأفانينِ مدّعٍ ببيِّنَةٍ فيها التمهُّر والحَذْقا
تردد فيه ثم فى الخلق ناظرى فأكبره ، ثم انثنى يُصغْرُ الخلقا(١)

ومن أصدقائه الذين أكثر من مدحهم ابن وهّاس أبو الحسن علُى بْن عيسى بن حمزة شريفُ مكة ، وقد عرفنا فيما سبق شيئا عن حفاوة هذا الشريف بالزمخشرى حين ذهب إلى مكة وأقام فيها مجاورا البيت الحرام .(٢)

وكان الزمخشرى، شديد العرفان لفضل صديقه ، عظيم الإكبار لشيمه وأخلاقه ، وسجل شعره هذه الأحاسيس الصادقة الجياشة فى مدائح كثيرة كانت أثيرة لديه، فجعلها فى مقدمة مدائحه حين رتب ديوانه وسماها «الوهّاسيات»(٣) نسبة إلى الممدوح بها ابن وهاس .

١- الديوان ١٠٢ .
٢- انظر ص ٥٨ ، ٦٠ من هذه الدراسة .
٣- انظر الديوان القصائد رقم ٤ ، ٥ ، ١٣٦ ، ١٧٠ .

ومما جاء فى إحداها :

هو الحرُّ ما أصْدَى إلى بيض معشرى　　فـأبْصرِه إلا نـقـعْتُ بـه الـصـدَى
ولـى مـنـه نُصْحُ الجيْبِ والـعـقْدةُ الـتـى　　أبت أن يرى الراءون أوثق معقدا(١)

وابن وهاس كان أديبا شاعرا ، وله شعر فـى مدح الزمخشرى ، والـزمـخشـرى يذكر ذلك ، ويثنى على شعره فيقول :

وإن ابـن وهاس ونـعـمـتَه الـتى　　يـطـوّقُنـيـهـا بـالإشــادة أخـلـقُ
وقـلـدنـى أطـواقَ شـعـر كـأنـهـا　　سُمـوطٌ بأيـدى الـكسرويات تُنْسَقُ
لها رونقان اثنـان : رونق طبعه　　ومـن شـرف الـعـرق المـنـافـى رونـقُ
زلالٌ وصــخــرٌ رِقـةً ومـتــانـةً　　وأحـســنُ مـاقـيـل المـتـينُ المـرقّقُ
كأن جـريرا صـب فيهـا نسـيبهَ　　ورصّف فيـها الافتـخارَ الـفرزدق(٢)

وهو يجل فى ابن وهاس نسبه الذى يصله بآل النبى صلى الله عليه وسلم؛ ويشيد بأخلاقه الحسنية ، وصفاته العربية فيقول :

ولاكابن وهّاسٍ فـتـى ضمَّ بُردُه　　حُساما وضرغاما وأخضر مزْبِدا
فتًى هو حـالٍ بالمعالى بـأسرها　　وقـد حلـيتْ منه المعالـى بأوحدا
عُلا حسـنيـاتٌ سنيات ابتـنتْ　　له بـيتَ مـجد فى الـسمـاءِ مُشيَّدا
نجيبٌ نمته مـن ذؤابة هاشـم　　نـقـيّاتُ أعـراق أطـابـتـه مـولـدا
ولو شاء لم يعتـدّ محتدَ هاشم　　نـصـابـا كـفـاه بـالـنـبـوة مـحـتـدا
ومن يك ابنا لـلرسول وصنوه　　وزهـرائـه لـم يـألُ فـخـرا وسـؤددَاَ
إذا قـال قولا فـالـغـفارىّ لَهـجةً　　ولـكـنـه يوم الـنـدى طلـحةٌ يدا(٣)

١-الديوان ٢١ .　　٢- الديوان ١٦ .　　٣- الديوان ٢٠ .

وحقيقة لقد كان الود الصادق الذى ربط بين الصديقين نبعا ثرًا فاض بكثير من مدائح الزمخشرى، التى تصارعت فيها ألوان من عواطف الحب والشوق والحنين ، حبه لابن وهاس وقومه، وتعلقه بالديار المقدسة، وحبه وحنينه لوطنه وأهله وأصدقائه فى العراق وخراسان وخوارزم .

وكانت هذه المدائح مزيجا من الشكر لأيادى ابن وهاس، والإعجاب بالشيم العربية فيه، والهيام بالأرض المقدسة ، والشوق إلى ديار الشاعر ووطنه والحنين إلى أهله وأحبابه .

مدح كبار الدولة :

وقد أكثر منه شاعرنا فى الطور الأول من حياته كما سبق ، فقد اتخذ شعر المدح وسيلة للتعرف بهم ، والتقرب إليهم ، وعرض مواهبه وفضائله أمامهم ، رجاء الظفر بالمنصب والمال .

وهذا النوع من مدائحه يدخل كثير منه فى «مدح التكسب» زلت بقلم الشاعر إليه ظروفه القاسية من فقر وعجز عن الكسب ، ودفعه إليه طموح شديد طبعت عليه نفسه ، وجعله يجد منذ صغره فى إعدادها بالعلم والأدب لمنزلة كبيرة يتبوؤها بين بنى عصره ، ثم يوثق صلاته بكبار العصر فى شبابه لينتزع منهم هذه المكانة التى ضنوا بها عليه؛ لأنهم لم يكونوا أهل علم وأدب فيقربوا ذويهما ويتشيعوا لأهلهما .

وكان طبيعيا أن تأتى مدائحه هنا وقد امتزجت بالفخر والشكوى ، فنجده يعدد فضائله، ويشيد بعلمه وأدبه ، ويتيه بقصيدته ، كما يشكو سوء حظه وانتقاص حقه ، فى أسلوب لايخلو من السخرية بالعصر ، والتنديد بما حفل به من مفارقات عجيبة، حتى تصدر الأراذل وتأخر الفضلاء ، وعلت المناسم وانحطت الأسنمات .

وقصيدته إلى صدر الكفاة[1] فيها كثير من هذه الخواطر والأحاسيس، وقد

١- الديوان القصيدة ٢٥ .

ذكرت أبياتا منها قبل ذلك .(١)

وقريب منها قصيدته فى مدح شمس الملوك ، وقد استهلها بقوله :

متى تبلغنّى يافضلُ آمالى ؟ متى توشح بالإقبال أحوالى ؟
يافضل لاكنت إن لم تعطنى شرفا أُزْهَى به بين أعمامى وأخوالى
أمنك أطلب إقبالى ولست أرى سواك من سبب فى فقد إقبالى
لو أننى منك عريان لسربلنى مما أريد زمانى ألفَ سربالِ
ياليت شعرى هل أغدو إلى نفر أكارم خلطوا فضلا بأفضال
وهل أرى الأدب المجفو ينصره على الجهالة قومٌ غيرُ جُهّال
حرّكْتُ فى طلب العلياء من هِممى وإنما يطلب العلياءَ أمثالى(٢)

وهكذا تشيع فى مدائحه هذه نغمة المباهاة بفضله وعلمه وأدبه ، والتنديد بقيم عصره ، فلا استجداء ولا ذلة ولا ضراعة ، بل استعلاء وسخرية ، إنه يسخر من الظالم الجاهل ، وينافح بشعره لينتزع منه حقه، وهو لايريد من ممدوحه إلا أن يكون منصفا ، فيعطى كل ذى حق حقه ، ويعرف أقدار العلماء والأدباء .

عَمّ الرعايا بإنصاف ، وخصّ ذوى علومهم بعطايا الجاه والمال
يصغُى إليهم ، ويصفيهم مودته ويصطفيهم بإحسان وإجمال

بل إنه يذهب مع ممدوحه إلى أبعد من هذا حين يدعوه إلى أن يحتكم فى أمره إلى العقل ، فلو فعل ذلك لما آثر على تقريبه واصطفائه وترشيحه شيئا :

أولى بمثلك ترشيحى وتربيتى لو قست ذلك من عقل بمقياس(٣)

١- انظر ص ٥٩ من هذه الدراسة .
٢- الديوان ٢٣٢ .
٣- الديوان ٢٤١ .

إنه لاينشد كريما تتدفق عطاياه بلا حساب ، وإنما يطلب عاقلا يحسن اختيار الرجال ويعرف كيف يصطفى ذوى الكفاءة منهم .

بل إنه كثيرا مايقف منهم موقف الناصح الخبير، فيقدم لهم من توجيهاته فى السياسة والدين مايضمن لعملهم النجاح ولملكهم الاستقرار، من مثل قوله لأحدهم :

خذ مااستطعت بالاحتياط ، فإنه نعم النصورُ على العدوّ وإن عتا
حتى إذا رامت لأسلتك العِدا – حاشاك – نحتا لم تصادف منحتا
حاول براءة ساحة مع أنه ليس البرئ بعادم متعنتا
وا أنف من الزاد الخبيث ، فمن رعى مرعاه أذعن للهوان وأخبتا
لايأكل السحتَ الكريمُ ولم يزل من ماله الأيامَ إلاّ مُسْحتا(١)

وكأنى به وقد اطمأن إلى مكانته فى عصره ووعى رسالته فى مجتمعه فأراد أن يأخذ بأيدى ممدوحيه إلى الحياة المستقيمة ، وأن يوجههم إلى مافيه خيرالأمة وإعلاء راية الدين ، فهو ينصح بالتقوى والعدل والإنصاف والسهر على راحة الرعية ، وجمع الكلمة ، وتأمين الدولة من أعدائها، ونبذ الاقتتال، وغير ذلك مما نجده مبثوثا فى قصائد مدحه، من مثل :

وأبهة الملك العواطفُ واللهى والويةٌ لا الطبل والبوق والصنج
وحربٌ تعز الدين والمسلمين ، لا حراب تُزجيها الديالم والزَّنج(٢)

وهكذا اتخذ الزمخشرى من مدائحه وسيلة إلى الإصلاح السياسى والاجتماعى والدينى والخلقى ، فجاءت معبرة إلى حد كبير عن نزعته الدينية واتجاهاته الأخلاقية، ولا تكاد معانى مدحه تخرج عن هذا الإطار .

١– الديوان ٣٣٥ . والمسحت: المال الذي هلك كله.
٢– الديوان ٣٧ .

فإذا كان ممدوحه ملكا راقه منه أن يكون يقظا، حسن التدبير، يوفر الأمن لمملكته ، ويؤرق عينه لتنام رعيته هادئة آمنة :

وأرقد عين الملك بعد سُهادها ووكّل بالتدبير عينا مؤرقة(١)

وأن يرد عن المسلمين كيد أعدائهم فى يقظة عقل وشجاعة قلب؛ ليوفر لرعيته الأمن والطمأنينة:

كأن إقليمه ممّا يحصّنه من كيْد كل عدو خيسُ رئبال

المسلمون نيامٌ فى مراقدهم وأنت يقظانُ ، سارٍ بين أهوال(٢)

وأن يكون كيّسا حازما داهية حكيما :

حازم يعرف فى عين المُداجِى ماأجنّ القلبُ من داء عياء

ليس يكفى كلُّ سيف وقناة بعضَ مايَكْفِى يحزْمٍ ودهاء(٣)

ولاينسى حميد الأخلاق حين يتحدث عما يزين ممدوحه، فيقول :

فتى ماجدٌ حلاّه علْم وعفّة وزينه أكرومة وحياءُ

ترى الماء يجرى فى أسارير وجهه كما مار فى صفْح المهنّد ماءُ(٤)

ويقول :

شمخت رتبته فوق الثريا وهْو لم يشمخ بأنف الكبرياء(٥)

ويروعه من ممدوحه أن يكون بارا تقيا، لايميل مع الهوى ولايفتنه عن طاعة ربه شئ :

ألا إن حق المدح بالبر والتُّقَى هو المدْح حقا ، ليس فى صِرْفه مزْجُ

١- الديوان ٩٥ .
٢- الديوان ٢٣٣ .
٣- الديوان ٤٥٠ .
٤- الديوان ١٢٣ .
٥- الديوان ٤٥٠ .

فذو اللب من لم تَغْذُه رضعةُ الهوى ولـــم يُصْبِـــه دَلٌّ ، ولم يلهه غُنْج (١)

وإذا كانت قصائد المدح قد كثرت عند شاعرنا، فلا يغيب عن ذهننا ماتضمنته هذه القصائد من شعر يمكن أن يندرج تحت أغراض أخرى، وهو كثير قد يستأثر بالجزء الأكبر من القصيدة ، فقلما تخلو قصيدة المدح من مقدمة طويلة فى الغزل، أو لوحات جيدة فى الوصف، أو أبيات كثيرة أو قليلة فى الفخر، والشكوى، والهجاء، والحكمة .

١- الديوان ٣٧ .

الفصل الثانى

الرثـــــاء

الرثاء من الأغراض التى اهتم بها الزمخشرى ، وكثر شعره فيها ، وقد جمعت مراثيه بين الندب والبكاء ، والتأبين والسلوان والعزاء .

ويمكن أن نميز فيها بين ثلاثة أنواع هى :

أ- مراثيه لأهله وأقربائه .

ب- مراثيه لأساتذته وأصدقائه .

جـ- مراثيه لوجهاء الدولة .

وسوف أبسط الحديث فى كل نوع منها على حدة .

مراثيه لأهله وأقربائه :

منها رثاؤه لأمه فى مقطّعة يصور فيها شدة الخطب وهول الفاجعة فيقول :

يـاحـادثـات الـدهــر أمّى بـعـدمـا   أدركـت أمّى بـالـردى مـن شِيـتِ
رُوحـى وأرواح الـعـشـيـرةِ كـلـهـا   جلَلٌ، عـذرتكِ أيُّهـن غـشـيـتِ
تـالـلـه لـو أحـسـسـتِ أدنـى خشْية   يـوم استُقِلَّ بـنـعـيـهـا لخشـيـتِ
لـو كـان يُرثَى حـادثٌ بـالـنـفـس أو   بـالمـال أو بـكـلـيـهـمـا لـرُثـيـتِ(١)

ونجد قصيدة(٢) على لسان أم صالحة توفيت، فهى تنعم بالجنة ، أما ابنها فهو دائم البكاء شديد الحزن لفقدها ، ومن ثم فهى تعزيه فى هذه القصيدة وترجوه أن يكفكف حزنه، ويجفف دمعه، وأن يشاركها سعادتها وسرورها التى تحياها الآن، كما كان يشاركها كل شئ فى حياتها الأولى ، والأم تكنى ابنها هذا «أبا الوفاء» ولعله الشاعر نفسه ، وهى تستهل القصيدة بقولها تبين أنه قد أدى

١- الديوان ٣٨٤ .   ٢- الديوان ٣٨٥ .

ماعليه من حزن وفاء بحق الأمهات على الأبناء :

أأبـا الـوفـا وفّيْت أىّ وفـاء وقـضـيت فـوق شـرائط الأبـنـاء
إيهاً فـقد حـقـقـت فـىّ جـمـيـع مـا يـحكون فـى صخْرٍ عـن الخـنسـاء

ثم تحثه على الصبر والسلوان، فتقول :

وتـعـز عـنـى ، واسـلُ سـلـوة صـابـر وتـخـط قـولـك : لات حـين عـزاء

ثـم تصـف له مـاتنعم بـه فـى الـدار الآخرة؛ حتى تقـر عينه ويسكـن حـزنه، فتناجيه:

أبـنى : إنـى فـى الجـنـان مـقـيـمـة أخـتـال بـين ظـلـيـلـة الأفـيـاء
حرٌّ الجـحيم رضا الـرحيم أعاذنى مـنـه ، وأنـزلـنـى مـع الـصـلـحـاء
فـى جـنـة الـفـردوس فـوق أريـكـةٍ فـى قبّة مـن دُرة زهـراء

ثم تبين تألمها، لأنه حزين لايشاركها سرورها، ولايقاسمها فرحتها بقولها :

أعـزز عـلـى بـأن أرانـى هـكـذا وأراك رهـنَ الـوجْدِ والـبُرَحاَء
أعـززْ عـلـى بأن تـطـول مـسـرَّتِى وتُطِيـلَ أنـت تـنـفسَ الـصـعـداء
كنَّا قـسـيـمـىْ فـرحـةٍ ومـسـاءة ولـقـد سـررتُ فَلَمْ أسـيـتَ ورائـى

والقصيدة بهذا النهج تمثل طريقة جديدة فى الرثاء، حيث نجد المرثى يعزّى أهله، مطلعا إياهم على ماخفى عنهم من النعيم الذى انتقل إليه ، فلو علموا الحقيقة لاقتصدوا فى حزنهم ، ولاستبدلوا بالأسى سرورا وبالبرحاء غبطة وحبورا .

والقصيدة بعد هذا أبانت عما كان بين الأم وابنها فى حياتهما من حب ووئام ، وأفصحت عن الحزن البالغ الذى شيّع به الابن أمه ، كما كشفت عن صلاح الأم وكريم أخلاقها مما جعل الجنة لها منزلا .

وله فى أبيه مرثية طويلة فيها عزاء وتأبين وبكاء .(١)

أما أبيات العزاء فقد استهل بها القصيدة حديثا عن الدهر وفواجعه ، والحياة وفنائها ، وحوض الموت الذى يرده الكل ولايصدر عنه أحد ، وكأن الشاعر بهذه المقدمة يعزى نفسه، فما نزل به - على فداحته - ليس إلا جريا على سنة الحياة التى لابقاء لها، والدهر الذى لا أمان له، والموت الذى يتربص بفرائسه ، فإذا انقض على إحداها فلا عاصم منه ولامحيد عنه . وهى معان طالما رددها الشعراء السابقون فى مراثيهم ، نجدها بسيطة سطحية فى الشعر الجاهلى ، وعميقة فلسفية عند شعراء العصر العباسى، من أمثال أبى العتاهية والمتنبى وأبى العلاء.

وتبدو هذه النظرة الفلسفية فى الحديث عن الموت ، فعلى الرغم من أن الإنسان يكرهه وينفر منه فهو يسير إليه حثيثا سير القطاة لاتضل مقصدها، فيقول :

شريعة الموت ورد ماله صدرٌ والناسُ فى حَسْو أنفاس الردى شرَعُ
كلٌّ له نفرةٌ منها ومركضُه مثل القطاة إلى تلقائها سرعُ

ويضرب الأمثال يلون بها الفكرة ويشرح المعنى، فيقول :

مضروبة لتقضّى عمرنا مثلا أن السحابةَ تحبو ريث تنقشع

ومعظم خواطره فى هذا المقام يصوغها حكما تقدم نظرته وخبرته وفلسفته، مثل :

لايدفع الموت رعديدٌ ولابطل لابد منه، أكاع الناس أم شَجُعوا

ويلتمس من مشاهد الطبيعة مايؤكد به فكرته، فحين يتحدث عن بطش الموت، وأنه لادافع له، يقول :

لو كان يُدْفَع أنجى عنه مهجتَه فى قُلّة لاترام الأعصمُ الصدَعُ
وطائرٌ فى قدامى ريشه طرَقٌ مُحلّق فى سُكاك الجوّ مرتفِعُ

١- الديوان ٢٤٧ .

حتى إذا انتهى إلى أن الموت كأس يشربه كل إنسان أحسن الانتقال إلى فجيعته فى أبيه، فقال :

ولو فدت نفسُ حى مثلَها لفدت   نفسى أبى البرَّ والمالُ الذى أسع

ثم يمضى فى تأبين أبيه معددا مناقبه، فيقول :

فقدت نصحا وإشبالا ورفرفة   من منُعِم كان يرعانى ويصطنع
فقدته فاضلا فاضت مآثره   العلم والأدب المأثور والورعُ
أخا طباع مصفَّاةٍ مناسبةٍ   ماءَ السحابة ما فى بعضها طبَعُ

وهنا نرى الشاعر حريصا على أن يرسم صورة كاملة لأبيه، يستقصى جوانبها ويستكمل ألوانها ، وكأنه بذلك يريد أن ينحت له تمثالا واضح الملامح والسمات ، فهو يتبع صفاته الجسمية بعد الحديث عن فضائله النفسية والخلقية، فيقول :

قريب عهد بوخْط الشيب عارضه   إثر الشباب ، ووحف الشعر متَّبَعُ
يزِينُه بلَجٌ فى حاجبيْه كما   يزينه فى حِفافَيْ رأسه نَزَعُ

ولأنه يريدها صورة كاملة صادقة لم يفته أن يتحدث عن قلة ماله، فيقول :

من المروءة فى علياء ، متسع   صدرا وإن لم يكن فى المال متسع

وهذا الاستقصاء لجوانب الشخصية النفسية والخلقية والجسمية والاجتماعية لانجده بهذه الصورة فى مراثى الزمخشرى الأخرى ، وإن كان فى جميعها لايصف الإنسان إلا بما فيه ، فلكل مرثى صفاته التى تميزه عن غيره، ثم يختم قصيدته بالحديث عن وقع المصيبة عليه ، فما أفدح الخطب حين يقع بأب يتحلى بهذه الصفات :

لو حل ما حل بى من فادح جلل   بركن طَوْدٍ لكاد الطودُ يتَّضع
باتت على كبدى نارٌ مُضَرَّمة   على فؤادى والأحشاءِ تَطَّلِعُ

وهنا نحس عاطفة الشاعر تفيضُ لوعة وأسى ، يعبرُ عنها فى بساطة وفطرية بعيدة عن التكلف، فيتأتى لها من الصدق والواقعية مايعطيها الحرارة والتأثير ، نحس ذلك فى هذه الصورة الواقعية التى رسمها لنفسه، وقد لفّه الليل وألحت عليه ذكريات أبيه :

أبيتُ مرْتفقا ، والصبر يشملنى كأننى بلهيب النار ملْتفع
ينبو بَى المضجعُ المهودُ جانِبُه كأننى فوق حد السيف مضْطَجِعُ

ويزيده حزنا وأسى أنه كان بعيدا عن أبيه حين مرض ومات ، فلم يتفقده فى مرضه ، ولم يرو غلته بنظرة إليه قبل وفاته :

وإن مما قرانى حسرةً وأسى وضافنى الكربُ من جراه والفجَعُ
أن عاقنى شحْطُ دار عن تفقُّده حتى مضى وهْو من ذكراىَ ملتذِعُ
ياحسرتا ، أننى لم أروغلَّتَه وغلَّتى بزمان فيه نجتمع

وبعد، فإن مرثية الزمخشرى لأبيه تعد من القصائد الجيدة فى موضوعها ، حيث توفرت لها حرارة العاطفة ، وصدق التعبير ، واستقصاء المعانى ، وترابط الأفكار ، إلى واقعية الخواطر ، والبعد عن المبالغة وقلة الاهتمام بالبديع .

وله فى خاله مرثية(١) معظمها حديث عن نكد الدهر ، وفناء الدنيا ، ومايجب على الإنسان من خلع أسباب الحياة والتزود بالتقوى، كل هذا فى حكم عامة وتأملات فلسفية .

وفيها بعد ذلك شكوى من كثرة النوائب التى حطت بساحته، فأودت بالعديد من أهله، واستأثرت بالخيار من أحبابه ، وتركته مع دهماء لاخلاق لهم، وفيها يقول:

ما للنوائب لاينفك ديدَنُها غَشْمى ، وهِجّيرُها قهرى وإذلالى

١- الديوان ٢٥٠ .

أفاتنى الحظُّ فى الإخوان كَرَّتُها وأفنت الصيدَ والفتيانَ من آلى
أودت بجدِّى ، ومابقت أخى وطوتْ عَمِّى ، وصادت بأسباب الرَّدَى خالى
وغيرهُمْ من رجال الحى طائفة تمُّوا لِتَتْميم أقوال بأفعال
وطفتُ فى هذه الدهماء بعدهمُ فما أصادف إلا زورَ أقوال(١)

رثاؤه لأساتذته وأصدقائه :

منها مرثيته فى شيخه أبى مضر(٢)، وهى مرثية طويلة تسير على النهج التقليدى لقصائد الرثاء فى الشعر العربى ، فقد استهلها بالحديث عن الدنيا وتفاهتها ، والآخرة وأحقيتها باهتمام العقلاء ، والدهر وغدره ، وما إلى ذلك من معانى الوعظ والزهد ، تنبث فى ثناياها أبيات الحكمة، فتؤكدها وتزيدها تقريرا فى النفوس، من مثل قوله :

وماذا الذى يغنى عن المرء عزه ولوملك الدنيا إذا دخل القبرا ؟
إذا عصم الفقرُ الفتى من ركوبه معاصى مولاه فما أحسن الفقرا
وإن بناتِ الدهر أعداء أهله فأجهلُ أهل الدهر من يأمن الدَّهرا

ولايفوته أن يستخلص العبرة من أحداث التاريخ، فيقول :

أيا عامر القصر المشيَّد رافعا علاليه قل لى : فمن يعمر العمرا
لقد رفع الإيوانَ كسرى فهل حمى أوانَ أتاه الموتُ إيوانُه كسرى

ثم ينتقل من هذه الخواطر العامة إلى الحديث عن المناسبة الخاصة بهذا البيت:

ومازال موت المرء يخرب داره وموت فريد العصر قد خرب العصرا

ونظرة إلى هذه القصيدة ترينا كيف تحكمت آفة الصنعة والتكلف فى الشاعر عند نظمه إياها؟ وآية ذلك هذه المحسنات البديعية التى تزخر بها أبياتها، بما تنم

١- الديوان ٢٥٠ .
٢- الديوان ١٠٦ .

عنه من جهد ذهنى لايقدر على بذله إلا من هدأت عاطفته ، ونشط عقله ليدبج هذه الزخارف اللفظية، كما فى قوله :

ونهنهت عينى أن تَضن بدرُّها ... على رجل مازال يمنحنى الدُّرَّا
وصفر خدَّى ثم بيَّض مفرقى ... رزية من لم يمنع البيضَ والصُّفرا

ومثل قوله :

مضى الحبرُ والبحر الذى لم تصب له ... على الغوص والتطواف شطا ولاقعرا

وسمة ثانية لهذا التكلف نجدها فى هذه الصور المتتابعة بما فيها من مبالغات تنم عن التصنع والافتعال وانبتات الصلة بينها وبين وجدان الشاعر علي ما نرى فى هذه الأبيات :

أغار إذا ما أعرض البحرُ طاميا ... ولم أر إلا ناضبا ذلك البحرا
ويُسْخِنُ عينى أن أرى البدر طالعا ... وأن الليالى غيبت ذلك البدرا
وتشخص بى زهر الكواكب غيرة ... إذا ذكرت نفسى مناقبه الزُّهْرا
فإن لاح لى بدر وبحر وكوكب ... تعاميتُ أو أوليتها نظرا شزْرا
وما كان حقى أن أشبهه بها ... فقد كان أعلى من ثلاثتها قدرا
عجبت من الأشجار تورق بعده ... ولاتحرق الأشجارُ أغصانَها الخضرا
وقلت لسارى المزن هلاّ بكيتَه ... وأنت الذى آخى أنامله العشرا
فقال: وهل أبقت لى اللوعة التى ... تنشّف ماءَ البحر نيرانُها قطرا

إن هذه الأبيات تطلعنا على مهارة الشاعر فى نسج هذه الصور ، وعلى تمتعه بمخيلة ثرة يمتاح منها كما يشاء ، ولكنها بتراكم صورها ومافيها من مبالغة مسرفة ، وحرص على البديع تدل على أنها وليدة ذهن متوقد لا عاطفة جياشة .

وآية أخرى فى هذه القصيدة على تصنع الشاعر فى رثائه ، وأعنى بها هذا

الاستطراد الذى استهوى الشاعر فمضى يصف شجاعة قوم المرثى، وكأنه يصف فرسانا فى معركة وصفا يطيل فيه، ويرسم تفاصيله، حتى ليكاد القارئ ينسى فى غماره الرثاء والمرثى ، وما أظن عاطفة الرثاء الصادقة مهيأةلمثل هذا الاستطراد؛ لأنها لاتصطبغ إلا بالألم ولاتنحرف عن المرثى ، هذا الاستطراد الوصفى نجده فى قوله :

ولو كان هذا الموت يمكن دفعه ... إذا لأقاموا دونه الأسلَ السُّمرا
وبيضا إذا الأغماد عنها تحسرت ... أهلَّ عطاش الركب تحسبها غُدْرا
بأيدى كماة ساوروا العزَّ ، وابتنَوْا ... بضرب الطلى والطعن فى الثُّغر الفخرا
فما عرفوا غير العجاجة ليلة ... وغير ضياء المشرفى له فجرا
على ضمَّر لو أنهم سلكوا بها ... ضمائر أقوام لأنفذنها ضُمْرا
إذا جالت الفرسان فى صهواتها ... أفاض على هاماتها الصمدُ النصرا
جمعن شيات الخيل ، لكن تخضّبت ... نجيعا فعادت كلُّ ألوانها شُقْرا
ترى كل مُهْرٍ كالنعامة سابحا ... بكل غلام باسل يشبه الصقرا
أسنتهم زرقٌ ، وزرقٌ عيونُهم ... فإن يغضبوا أو يطعنوا انقلبت حُمرا
يحرضهم من آل ضبَّةَ فتيةٌ ... سموا غير أغمار ليقتحموا الغَمْرا(١)

ومهما نجح الشاعر فى عقد الصلة بين هذا الوصف لفرسان بنى ضبة، ورثاء عميدهم وشيخهم أبى مضر، فإن هذا الاستطراد الطويل يجعلنا نتشكك كثيرا قبل أن نقرر أن وراء رثائه هذا عاطفة تجيش بالحزن وتفيض بالأسى .

وله فى صديقه محمد بن أرسلان مرثية(٢) يستهلها بالحديث عن هول الفاجعة، حتى لقد أصيب فيه العلم والإسلام ، ويبكى فضائله وعلمه وشعره ، ثم

١- الديوان ١٠٩ .
٢- الديوان ٢٦٢ .

يذكر ماكان بينهما من ود صادق، مؤكدا أنه سيظل وفيا له بعد موته، فيقول :

حبل الهوى بيننا كانت مريرته ... شزرا ، وذلك حبل غير منتكث

إنّى حفىٌّ وفىٌّ بالصديق وإن ... طالت به تحت رمس مدّةُ اللبث

ثم يُنحى باللوم على الليالى التى لاتزال تكيد له فتختطف من عالمه خيرة الرجال ولاتترك له إلا كل غادر خبيث، فيقول مستطردا فى هجاء هذا الصنف :

بقيت بعد وفاةٍ لاتخيس لهم ... عهد على نفر غدّارة نكُث

بقيتُ بعد مصاليتِ الرجال على ... قوم هم نظراء النسوة الطُّمُثُ

لم يعرف الطيبُ منهم ، لاولاعرفوا ... ما الطيبُ، تبا لتلك الأنفس الخبُث

صاغوا الحُلَى لا العُلَى زينا لأنفسهم ... لولا الحيا قرّطوا الآذان بالرُّعُث

لم يخل من خبث فى الطبع أرْجلَهم ... وكيف يستبرئ الخنثى من الخَنَثَ

يمشى ببطن قد انداحتْ أسافله ... كأنه الكلب لاينفك من لهثِ

وهكذا يمتزج الرثاء بالشكوى والهجاء ، ولكن تبقى الصلة قوية بين هذه الأحاسيس المتنوعة فلا تخرج بها عن الجو العام للرثاء، جو الحزن والأسى الذى سببه فقد صديقه ، فإذا شكا فإنما يشكو دهرا فجعه فى هذا الصديق ، وإذا هجا فإنما يهجو قوما ساءت طباعهم، وهم من ادخرهم الزمن له بعد أن مضى عنه أمثال صديقه من الوفاة المصاليت .

ومعظم مراثيه فى أصدقائه لاتتجاوز هذا النهج ، تذكر الفجيعة وهولها ، وتثنى على المرثى ، وتشكو الدهر ، وتذم من بقى بعد الفقيد ممن تجمعت فيهم خلال السوء .

رثاؤه وجهاء القوم:

كانت للزمخشرى صلات متنوعة بوجهاء القوم وذوى النفوذ منهم ، وكان يمدحهم فإذا توفى أحدهم فقد يرثيه بقصيدة يشيد فيها بمناقبه ، ويصور فداحة

الخطب ، والخطب هنا ليس خطبه فقط وإنما خطب المجتمع كله .

ومن هذا النوع قصيدته فى رثاء السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه[1] يستهلها بمقدمة عن قضاء الله ونفاذه ، ويقدم العبرة من المناسبة، فالمرثى هنا سلطان لم تحمه من الموت قلاعه ، ولم تردّه عنه جيوشه وحراسه ، ولم يغن عنه شيئا غناه وجاهه، فما أقوى الموت وأشد بطشه، وما أعدل شريعته :

قضاء ربك حد غير مسبوق ... بابٌ يساق إليه كلُّ مخلوقِ

سيأن من ليس مرموقَ المحل وذو ... جاه بأبصار كُلّ الخلق مرموق

وربُّ تاج وديباج يجرره ... كذى كساء رقيع الجيب مفتوق

حُجْب الملوك يد المقدار تخرقها ... كم من حجاب بكف الدهر مخروق

ولاترد الردى بيضُ السيوف ولا ... سُمْر الرماح ولازُرق المزاريق

ولاقلاعٌ منيفاتٌ مُحَصَّنَةٌ ... بذادة ورماةٍ بالمجانيق

والمرء يؤتى من الشّقّ الذى بعدت ... عنه مخيلةُ ذى حدسٍ وتحقيق

ألم تر الشهْمَةَ الزباء كيف أتى ... هلاكُها من رجال فى الصناديق

وهى – وإن كانت خواطر عامة صاغها حكما مقررة – وثيقةُ الصلة بالمناسبة التى أحسن استخلاص العبرة منها .

فإذا فرغ من هذه المقدمة انتقل إلى المرثى فأشاد بصفاته ومآثره، ومما قاله فى ذلك :

محمد بن أبى الفتح الذى تركت ... أوصافه لكنةً فى كل منطيق

ابنُ السلاطين من أبناء سلجوق ... وابنُ الغطاريف منهم والغرانيق

لله من عادل من حق سيرته ... ونصره الحق أن يُدْعى بفاروق

مستوجب من جموع الشرك مبغضةً ... محبب فى بنى الإسلام مرموق

١– الديوان ٢٥٤ .

ويمضى معددا مـ تبه، مشيدا بجهاده ونشره الأمن ورعايته لأمور الدين، ثم يختم القصيدة بالإشادة بمن تولى بعده من آل سلجوق، داعيا له بالتأييد والتوفيق .

وقد تكون القصيدة تعزية لأحدهم فى قريب له ، ومن ذلك قصيدته التى يعزى فيها عبيد الله فى ابن له توفى صغيرا .(١)

والقصيدة تسجل للزمخشرى قدرته الفنية فى التأبين، فعلى الرغم من أن الفقيد هنا طفل ليس له من المآثر والفضائل مايعدده الشاعر فى هذه المناسبة، فإن موهبته لم تخذله فى هذا الموقف، فأجاد فى تأبينه مازجا الثناء عليه بمدح أبيه وقومه ، ويمكن أن نتأمل ذلك فى أبياته التى استهل بها قصيدته أروع استهلال:

ياكوكبا فى سماء المجد قد غارا	ويا هلالا مضى لم يلْق إبدارا
قد أعجلتك الليالى أن تُرى قمرا	تِماً سوى أنك استكملت أنوارا
كذاك أبناء أهل المجد إن طلعوا	أهلةً حُسبوا فى النور أقمارا
ياغصنُ أورقتَ لكنّ الليالىَ لم	تنظر فتجنى منك الناسُ أثمارا
إن كنت مثل ابن مُزن فى طهارته	فقد يضاهى أبوك المزْنَ مدرارا

ثم تختم القصيدة بحث الأب على الصبر الجميل احتسابا للأجر والمثوبة ، ولعل مما يؤخذ على الشاعر فى هذا المقام بيته الذى قاله فى معرض الحث على الصبر وترك البكاء(٢).

والجدير بالتسجيل هنا أن هذا النوع من رثائه لوجهاء القوم يغلب عليه العزاء والمدح ، وقد لايبدو فيه أثر للحزن على المرثى، لاسيما إذا كانت المرثية امرأة لم تربطها بالشاعر صلة فى حياتها ، إننا حينئذ نجدها لاتظفر من قصيدة الرثاء إلا بالقليل، بينما يذهب جل القصيدة فى مدح المعزّى ودفع الحزن عنه ، وفى سبيل

١- الديوان ٢٥٣ .

٢- البيت رقم ١٥ ص ٢٥٣ وفيه يقول :

والدمع بالخد من زى النساء ومن	يحك النساء يبرقع وجهه عارا

ذلك قد نجد تهوينا من شأن المرثية، حتى إنها لتصبح غير خليقة بأن يشتد الحزن عليها، فحسبنا أن يبقى المعزىً . نرى هذا فى قصيدته التى يعزى فيها شمس المعالى فى فقيدته شمس النساء، فيقول :

على تاج النساء الشمسُ تبكى	توافقُ صِنْوها شمسَ المعالى
وتندبها الليالى لابساتٍ	حِدادا والنجومُ مع الليالى
لئن تاج النساء مضتْ وفاتت	لقد أبقت لنا تاج الرجال
وأربابُ الحجا إن يسلموا لم	أبال بموت ربّات الحجال
بنو الأيام لو ماتوا جميعا	وعاش لنا وحيدا لم نبال
عزيز مثله كرما ومجدا	وخذ أمثالهم عدد الرمال(١)

ولا أدرى أي موقع وقعه هذا الشعر من قلب المعزى ، وأرى أن الفقيدة إذا كانت عزيزة عليه فإنه سيؤلمه هذا العزاء، ولاسيما ماجاء فى البيت الرابع الذى بدا الشاعر فيه غير مبال بما حدث ، ومأأظن أن أبيات المدح تغنى غناء المشاركة الوجدانية التى يحتاجها المعزى، وافتقدتها هذه الأبيات .

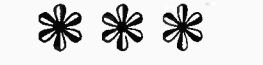

١ – الديوان ٣٠٤ .

الفصل الثالث

الحنين والشوق

شعر الزمخشرى فى الحنين والشوق جاء تعبيرا صادقا عما خفق به قلبه من حنين إلى أماكن أحبها ، وشوق إلى أناس تعلق بهم وتعلقوا به ، ويمكن أن نقسم شعره فى هذا الغرض أقساما ثلاثة:

أ- قصائد يعبر فيها عن حنينه إلى مكة وشوقه إلى شريفها ابن وهاس .

ب- قصائد يعبر فيها عن حنينه إلى وطنه وشوقه إلى قومه به .

جـ- قصائد يعبر فيها عن شوقه إلى من فارقوه من أساتذته أو تلاميذه أو أصدقائه .

وفيما يلى حديث عن كل نوع من هذه الأنواع :

شعره فى الحنين إلى مكة والشوق الى ابن وهاس:

سبق الحديث عما كان من شاعرنا فى الطور الثانى من حياته من حب لمكة وتعلق ببيتها الحرام وهيام بمقدساتها .(١)

وقد صور شعره تلك الأحاسيس فى قصائد كثيرة سميت «المكيات» وجاء ترتيبها متقدما بين قصائد الديوان مما يعكس مكانتها الأثيرة عنده .

وفى ضوء ماعرفناه عنه فى الحديث عن رحلة عمره يمكن القول بأن قصائده فى الحنين إلى مكة قد أنشئت فى فترات ثلاث، أولاها: حين أبل من مرضته الناهكة، وعقد العزم على أن يترك الدنيا بأوضارها، ويتجه إلى الدين مؤثرا جوار الله على التزلف إلى الملوك والسلاطين ، فقد هفا قلبه إلى مكه ، وتعلق بالبيت الحرام ، وأصبح رحيله إلى مكة وقضاؤه مناسك الحج أملا عزيزا يداعب خياله، ويطلب من الله تحقيقه، ومن ذلك قوله :

١-انظر ٦٧ -- ٧٣ من هذه الدراسة .

يـالـيـت شـعـرى والحـوادث جـمـةٌ ... والـغـيـبُ فـيـه لـلـحـكـيـم سـرائـرُ
هـل فـى قـضـاء الـلـه أنّىَ قـادم ... أمَّ الـقـرى فـإلـى الـبـنـيـة نـاظـرْ
فـمـقـبـل الـحـجـر المـمـسّح ملْصـقـا ... خـدى بـه وعـلـيـه دمـعـىَ قـاطـرُ
فـبـذلـك الـبـيـت المـسـتّر طـائـفٌ ... فـى ثوبَى الإحـرام أشـعـثُ حاسـر(١)

ويمضى هكذا معددا مناسك الحج التى يصبو إلى مشاهدتها، ويشتد به الحنين إلى أم القرى فيملك على القلب أقطاره، إنه يشتاق إلى ذكر اسمها، فعنده يخفق القلب ويشرق الوجه، وفى ذلك يقول :

فـؤادى إذا أمُّ الـقـرى مـرَّ ذكـرُهـا ... يـرِفُّ رفـيـف الأقـحـوان مـنـوّرا
ويـصـبـح وجـهـى شـاحـبـا فإذا جـرى ... تـبـلّج وجـهـى كـالـصـبـاح وأسـفـرا
أيـا حـبّذا سـوقـى الـركـاب مـلـبّـيا ... إلـى عـرفـات أشـعـث الـرأس أغـبـرا
ولـيـلـةُ جـمـع والـبـكـور إلـى مـنـى ... وعن مسجد الخَيْفِ انحدارى مجمّرا
ووطْء بـسـاط الـرحـمـة المبتغى وأن ... أهـرول فـيـه حـالـقـا ومـقـصـّرا
تـذكـرتُـهـا فـارفـضّ صـبـرى وقـوّتـى ... ولابـد لـلـمـشـتـاق أن يـتـذكـرا (٢)

أما الفترتان الأخريان اللتان أحس فيهما الحنين الشديد إلى مكة فهما الفترتان اللتان أعقبتا رحيله عن مكة بعد جواره الأول ، ثم بعد جواره الثانى .

وشعره فى هاتين الفترتين يفيض ندما على تركه مكة، ويمتلىء أسى وحسرة على البعد عنها ، وتغنيا بذكرياته فيها ، وشوقا وحنينا إلى العودة إليها ، ومما يصور هذه الأحاسيس قوله :

هـو الـنـفـس الـصـعّادُ عـن كـبـد حرّى ... إلـى أن أرى أم الـقـرى مـرة أخـرى
سـريتُ بشـخـصى لابقلبى وهمّتى ... وهيهات مالـلأخشبين وللمسرى

١- الديوان ١١٥ .

٢- الديوان ١٦٥ .

منيخان بالبطحاء ماذرٌ شارقٌ ... مقيمان عند البيت ماذكت الشِعْرَى
عكوفهما فى عاكفى البيت واصب ... طوافهما فى الطائفين به تترى
وماجاوزتْ بى بطن نخلة أينقى ... وقد لج بى جهد الصبابة واستشرى
فكيف إذا خلى الحجاز وراءنا ... وجيف المطايا ؟ يالها كبدا حرى
ليالىَّ فى بطحاء مكة صافحى ... يمينى تصب نفسى غنيمتها الكبرى
فإن حدثتنى بعدُ بالسير معرقا ... فلا رزقت يسرا ولا لُقِّيتْ بشرى
أأبتاع بالفوز الشقاوة خاسرا ... وأستبدل الدنيا الدنية بالأخرى
إذا خطرت بالبال ذكْرى إناختى ... على حرم الله استفزَّتنى الذكرى
أكابد ليلا كالليالى وحسرة ... ودمعا عزيز المستقى غائر المجرى
وأدعو إلى السلوان قلبا جوابه ... لداعيه مهراق من المقلة العبرى(١)

ولم يكن هيامهُ بالأماكن المقدسة سببه الوحيد فى الحنين إلى مكة، بل كان هناك سبب آخر أجّج هذا الحنين وزاده توقدا، ذلك هو حبه الشديد لابن وهاس شريف مكة وقطينها، وقد سبق الحديث عن عرا المودة التى ربطت بين الزمخشرى وهذا الشريف الذى احتفى به فى مكة أيما احتفاء وتعلق به أشد تعلق (٢)، وحين غاب الزمخشرى عن مكة لم تنقطع المراسلة بين الصديقين، وطبيعى أن يعبر الزمخشرى عن شوقه الشديد إلى صديقه فى شعره، من ذلك قوله فى قصيدة يبدؤها بالشكوى:

قلبى لايعرف السرور وما ... أعرفَ قلبى بشدة الحزن
حسبى من كل غصة وأسى ... ماحل بى من نوى أبى الحسن(٣)
أحيى ليالىَّ وهى تقتلنى ... شوقا إلى صبح وجهه الحسن

١- الديوان ٣٦ .
٢- انظر ٧٠ - ٧٣ من هذه الدراسة .
٣- أبو الحسن كنية الشريف ابن وهاس على بن عيسى .

طوّل عـهـدى بـه الـزمـان وقـد   طـول عـهـد الجـفـون بـالـوسـن
أصبحت مذغاب كالغريب على   أنّى فى أسرتى وفى وطنى
أفْكِرُ فى مُسْتطال غيبته   فكاد روحِيَ ينسل عن بدنى(١)

ويتعاون على قلبه الأمران معا: حنينه إلى حرم الله، وشوقه إلى ابن وهاس فكل منهما يذكره بالآخر وقد حلا من قلبه فى السويداء، وحينئذ نجد القصيدة الواحدة وقد امتزج فيها حبهما والشوق إليهما، فيقول:

فؤاد من الشوق المبرِّح ريّان   إلى حرم الله المعظم ظمآنُ
يروح ويغدو ماتغُبُّ سواده   تباريحُ ينهبن العزاء وأشجانُ
إذا جال فيه هاجسٌ من تذكُّر   لمكّة عامىٌّ التظت فيه نيرانُ
وأبرح مابى أننى شيِّقٌ إلى   علَىٍّ بن عيسى ، لاعجُ الوجد حرّانُ(٢)

ويقول فى قصيدة أخرى مرسلا تحيته إلى حبيبيه: أم القرى، وقطينها ابن وهاس مصورا حنينه إليهما:

ألا أبلغا أم القرى وقطينها   تحية نفس ماتغبّ حنينَها
تحن إلى البطحاء حنّة واله   بناتُ الليالى أثكلتها قرينَها
حكت بعد شحط الدار عرجاءَ شَوْحَطِ   تحنّيها منزوعة وحنينها
متى ذكرت – والذكر يبتعث الأسى –   بمكة عاميها أطالت أنينها
وجنّتْ وذكراها الشريف هى التى   تهيجُ –فما إن تستفيق– جنونها
ولولا الذى خطّتْ أناملُه لما   تلقت إلى يوم التلاقى سكونَها(٣)

شعره فى الحنين إلى وطنه وقومه:

وكان طبيعيا أن يحن إلى وطنه وقومه به حين تطول فترة بعده عنه وعنهم،

١– الديوان ٤٨٣ .

٢– الديوان ٧٢ .   ٣– الديوان ٢٣ .

وكثيرا ما كان هذا الحنين يستيقظ فى قلبه وهو فى مكة فيثير أشجانه، ويكدر عليه صفو حياته هناك، ولا يزال هذا الحنين يلح عليه حتى يستنفد فى المقاومة طاقته؛ فلا يملك إلا أن يرحل عن مكة -على حبه الشديد لها- ليقضى لبانة نفسه، ويروى غلة شوقه.

وشعره فى مكة يصور هذا الحنين إلى وطنه، ويعكس هذه العواطف المتنوعة التى كانت تتصارع فى فؤاده، حيث يتوزع القلب بين حب لمكة، وحنين إلى العراق وخوارزم، وبين تعلق بشريف مكة ابن وهاس، وشوق إلى أهله وقومه وأصدقائه بوطنه، نحس هذه المشاعر فى قوله حين ومض البرق من ذات عرق فحرك أشجانه إلى العراق ومَن فيه:

أمِنْ ذات عرق ومضةُ البرق تخفق ... كنبضة عرق فالفؤاد مشوّق

ولو لم تكن ميقاتَ أهل العراق لم ... أشم برقة من ذات عرق تألّق

تَسف إلى صوب العراق عزائمى ... وتزجرها أمّ القرى فتحلق

ولى بدن صفر من القلب طارح ... بأرض الحجاز الرحل والقلبُ معرق

هواى عراقى ، وأهواء صحبتى ... حجازية ، ياشد مانتفرق

تبيت بنات الشوق تغلبنى على ... قواى ، فذرعى ياابنة القوم ضيق

ويخذلنى صبرى إذا أقبل الدجى ... وينصرنى دمع وجفن مؤرق[1]

وتؤجج حنينه وشوقه رسائل قومه التى تتقاطر إليه، تحمل أشواقهم إليه، وإشفاقهم عليه من الغربة، ونصحهم له بالعودة إليهم، والشاعر يبادلهم الشوق والحنين، ولكن حبه للبيت الحرام وتعلقه بابن وهاس يمده بطاقات من الصبر فيقاوم إغراء قومه، وتعود رسائله إليهم لا تحمل إلا الوعود المنمقة، وفى ذلك يقول مخاطبا ابن وهاس فى نفس القصيدة:

١- الديوان ١٨ .

ولولاك والبيت العتيق لطيرت ... رحالى عن بطحاء مكة أينق

ولولاكما لم أعص قول مراسلى ... أطعنى فإنى ناصح لك مشفق

ولاصدرت عنى رسالات معشرى ... ومرجوعها تلميظ وعد منمّق

وكم راودونى عن «نعم» فأبيتها ... إباء العيوف الوِرْدَ وهو مرنّق

ومانَعَمٌ حُمْرٌ تساق إليهمُ ... كقولى نَعَمْ ، لو أنها تتحقق

وقد شاقنى قومى وذلك بعدما ... شققنا العصا ، غرَّبْتُ عنهم وشرَّقوا

ولايزال الشاعر يذكر وطنه ويحن إلى آلافه فيه، ولا يملك إلا أن يصبر؛ فبينه وبينهم مسافات شاسعة، وصحار مضلة، وجبال مشمخرة، تفرقت فيها عصابات الشر وقطاع الطرق، فما أكثر الحوائل التى تقف دون إرواء غلته، هذا ما يصوره فى قصيدته إلى صديقه «الموفق» بخوارزم[1] وقد استهلها بقوله:

إلى الله أشكوكَ يا ساق حرَ ... قدحت بنوحك فى ساق حرَ

وفيها يقول:

يراوح من ذكر أوطانه ... ومن صبره بين حلو ومرّ

يحن وكم دون آلافه ... لأذيال عاصفةٍ من مجرّ

وبيداء يطرق فى طرقها ... أدلاؤها لخفاء الممرّ

وكم دون خوارزم من غائط ... بطين ومن جبل مشمخر

أمال إلى النجم يافوخه ... كمصغ ليفضى إليه بسر

وكم دونها من أُشابات قوم ... جفاةٍ لخير كفاةٍ لشر

ثم يمدح قومه، فيقول:

ولم أر فى الناس قوما كقومى ... أكفَّ أكفى لبؤس وضُرّ

١- الديوان ٥٣٠ .

وأقعد فى فجرة تتقى . وأسرعَ خطوا إلى كل برِّ

شعره فى الحنين إلى من فارقهم من أساتذته أو تلاميذه أو أصدقائه:

من ذلك قصيدته التى يعبر فيها عن شوقه إلى أستاذه أبى مضر(١) الذى كان بمرو حينئذ، وقد استهلها بقوله:

سلام عليكم أدمعى قلّما ترقا إذا شِمْتُ من تلقاء أرضكُم برقا

وبعد أن يخلص من المقدمة يقول:

ولهفى على عصر تقضّى مناسب سجايا فريد الدهر أو وجهه الطلقا(٢)

هو المرتضى وجها وخلْقا ، وإننى لأشتاق ذاك الوجه بل ذلك الخلقا

إذا الريح من شرقى مرو تنفّست فيابرد صدرى حين أنشقها نشقا

ومايطّبينى الأيك إلا لأننى أساعد فى الشجو الحمام به الورقا

وإن عصفت ريح الشمال ذكرته وإسراعه نحو المكارم والخلقا

وتمرى مآقىّ الغوادى لأنها تضاهى يديه كلما دفقت دفقا

وان مدّ جيحون تذكرت فيضه بما يغمر الأذهان والألسن الذلقا(٣)

ثم تمضى الأبيات معددة مناقبه مشيدة بصفاته، حتى إذا استوفى الشاعر ما أراد من ذلك ختم قصيدته بشكوى ما حل به وبصحبه من أحباء فريد العصر أبى مضر بسبب فرقته لهم، مبينا أنه أخفقهم قلبا وأعظمهم شوقا، فيقول:

إلى الله أشكو أننى بعد رِدْيتى ببُرْد قشيب أرتدى بردة سَحْقا

١- الديوان ١٠٠ .

٢- فريد الدهر لقب شيخه أبى مضر .

٣- الديوان ١٠١ .

الفصل الرابع

الشكوى والهجاء

شعر الشكوى:

استقلت به بعض المقطعات، كما تضمنته بعض القصائد ضمن مااشتملت عليه من أغراض أخرى ، وإن كانت روح الشكوى والألم لاتكاد تفارق شاعرنا، فيطالعنا فى معظم شعره وكأنه يعانى من شعور شديد بالغربة فى هذا العصر .

يحس الزمخشرى بهذه الروح الشاكية الحزينة تتسرب إلى شعره فتطبعه بطابعها ، ويقدم لنا هذا الإحساس فى حوار له مع سليمى ، حيث يقول :

تقول سليمى : مالشعرك طيبُ ... وهل طاب شعر ليس فيه نسيب ؟

ربيع نفيتَ الوردَ عنه فقل لنا ... ربيع بدون الورد كيف يطيب ؟

فقلت لها قول امرئ لعبت به ... صروف زمان جمّةٌ وخطوبُ

شكايات أزمان ملكن قصائدى ... فلم يبق فيها للنسيب نصيب

إذا قلت فى شكوى الزمان قصيدة ... وجدتُ القوافى ترعوى وتجيب

وإن قلت مدحا أو نسيبا وجدتُها ... وعصيانُها لى عند ذاك عجيب

بغيض من الأحداث يرزق منطقى ... ويحرمه شخصٌ إلى حبيب(١)

فلماذا كثرت شكاواه ؟ ومن أى شىء كان يشكو ؟

شكا الشاعر أمرين؛ الزمن وجوره وفساد قيمه ، والناس وضعف دينهم وفساد أخلاقهم .

١- الديوان ٩٨ .

شكوى الزمن:

سبق الحديثُ عن طموح الزمخشرى وماكان يرنو إليه من منصب يتسامى وماعرف به من الفضل ، وقد برز فى العلم والأدب وعُرِف بالخُلُق والدين ، ولكن عصره يضن عليه بهذه المكانة ، فيؤرقه إحساس بالظلم وشعور بأنه بُخِس حقَّه، ويضاعف ألَمَه مايراه من محاباة للجهلاء وتكريم للأراذل، فيمتلئ سخطا على العصر الذى فسدت فيه القيم ، وضاعت فيه الحقوق وحفل بالمفارقات :

عفاء على الدنيا طويل لرفعها ... مناسمها السفلى على أسنماتها[1]

إنه الجور الاجتماعى الذى اكتوى بشواظه هو وأمثاله من فضلاء هذا العصر، فلا غرو إذا وجدناه فى شعره معبرا عن هذا السخط ، شاكيا هذا الظلم ، ساخرا من هذه الأوضاع الفاسدة، والمعايير الجائرة، مع تذكير بفضائله وتنويه بمنا قبه ،ومن ذلك قوله :

خليلىَّ هل تجدى على فضائلى ... إذا أنا لم أرفعْ على كلِّ جاهل

من الغبن ذو نقص يصيبُ منازلا ... أخو الفضل محقوقٌ بتلك الأفاضل

كفى حَزَنا أن يُرْغِمَ الحلم والحجا ... تصدر بُادٍ طيشهُ غيرِ عاقل

ومن لى بحقى بعد ماوفرتْ على ... أراذلها الدنيا حقوقَ الأماثل

كذا الدهرُ كم شوهاء فى الحلْى جيدُها ... وكم جيد حسناء المقلد عاطلِ

ومما شجانى أنَّ غُرَّ مناقبى ... تغنيهَ بها الركبان بين القوافل

وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى ... وسارت مسير النيرات رسائلى

وكم من أمال لى وكم من مصنَّف ... أصاب بها ذهنى محزَّ المفاصلِ

ولى فى دقيق النحو والنقد منطِقٌ ... إذا قلته لم أبق قولا لقائل

١- الديوان ١١٤ .

غنَى مـــــن الآداب لـكــنـنِى إذا نظرتُ فمـا فـى الـكف غيرُ الأنامـل

فياليتنى أصبحتُ مستغنيا ولم أكنْ فخرَ خوارزم رئيسَ الأفاضل

وياليتنى مرضٍ صديقى ومسخط عدوى وإنى فى فهاهة باقل

فلست بفضلى بالغا ولو اننى كقس إياد أو كسحبانِ وائل(١)

وعبثا يحاول الشاعر أن يتخذ من فضائله سلُما يرقى به إلى المنزلة التى يطمح إليها فى مجتمعه ، فقد هبطت قيمة هذه الفضائل، فلا اعتراف بها ولاتقدير لها ، وينعى الشاعر فضله فى أسلوب يصم العصر وقيمه، فيقول :

يافضلُ لاكنتَ إن لم تعطنى شرفا أُزْهَى به بين أعمامى وأخوالى

أمنك أطلب إقبالى ولست أرى سواك من سبب فى فقد إقبالى

لو أننى منك عريان لسربلنى مما أريد زمانى ألفَ سربال(٢)

لقد شقى الزمخشرى بما كان خليقا أن يسعدَ به ، شقِىَ بفضله وعلمه وأدبه فما أعثر جده، وما أكثر همه :

ألا ماأقل سرورى بما اصبتُ وهمىٌ ما أكثره

شقيتُ بما هو سعْدُ السعود فلله جدَىَ ما أعثره(٣)

ولا يألو الزمخشرى زمانهَ سخريةً واستهزاء بقيمه ومقاييسه التى انقلبت رأسا على عقب، حتى إنه ليطلب منه أنْ يغض النظر عن فضائله، وأن يعامله كما يعامل الأراذل :

فوقّع إلى هذا الزمان فإنه غلامكَ يجعلْنى كبعض الأراذل(٤)

ولايهادنِ الزمان شاعرنا ، بل يناصبه العداء ، ويعلنها عليه حربا شعواء، وكأنه موتور ينتقم أو حاقد ينفث أضغانه ، ويشكو الشاعر ذلك، فيقول :

١- الديوان ٧٠ .
٢- الديوان ٢٣١ .
٣- الديوان ٥٢٩ .
٤- الديوان ٧١ .

ولم تزل تلعب النوائب بى كأن دهرى على مضطغن(١)

وعبثا يستعين الشاعر بزمنه على قهر أعدائه ، وما أشبهه حينئذ بمن يستجير من الرمضاء بالنار ، فإن الزمن ألد هذه الأعداء :

أطلب قهرَ العدو من زمنى وإن أعدى عدوى الزمن(٢)

وإنها عداوة شديدة ، وحرب غير متكافئة تركت الشاعر نضوا مكدودا :

لم يترك الدهر لى قلبا أحس به بغض البغيض ولا ودًّا لمودودِ

طافت بمُمْتَحَنٍ ضاق النطاقُ به نضوٍ بطارقة الأيام مكدودِ(٣)

ولكنه عداء لايدهش الشاعر ، وموقف من الزمن ليس بمستغرب ، فهذا ديدنه مع كل أريب فطن أديب كريم النفس :

وهكذا الدهر حرب كُلَّ فتى يقال فيه الأريبُ والفطن(٤)

ولست أنكر أن الجد يعثربى كذاك كل أديب غير مجدود(٥)

لكنه الدهر مازالت حوادثه أعداء كل كريم النفس غيداق(٦)

شكوى الناس:

وإذا كان الزمخشرى قد شكا الزمن جوره عليه ومعاداته اياه، فقد شكا من الناس مرض نفوسهم وقلة وفائهم ، وفساد أخلاقهم ، وضعف دينهم، إنه يشكو كثرة حاسديه وإن كان يرى ذلك أمرا طبيعيا ، فكلما زادت فضائل الإنسان كثر أعداؤه وحاسدوه:

أرى حُسّدى ملء الأباطح والذُّرى صدورهمُ فى مثل غلى المراجل

على حسب الفضل العدا وعدادهم وكلٌّ عِدا من حاز كل الفضائل(٧)

١- الديوان ٤٨٧ . ٢- الديوان ٤٨٧ . ٣- الديوان ٢٢٠ .

٤- الديوان ٤٨٧ . ٥- الديوان ٢٢٠ . ٦- الديوان ٢١٧ .

٧- الديوان ١٩٦ .

ويشكو قلة إخوان الصفاء، فيقول :

الا إن إخـــوان الصفاء قلـيـــلُ فهل لى إلى ذاك الصفاء سبيل؟(١)

لقد خبر الزمانَ وعجم الناس فروعه ماعلم من ندرة الأصدقاء وفساد الخلال ، وهاهو ذا يقدم خبرته فى هذا المجال :

قل لباغى الصديق رمتَ عزيزا مـا أقـل الـصـديـق فـوق المُقلّهْ

لو علمتَ الزمان والناس علما مثل علمى لما رضيتَ بخِلَّهْ(٢)

لقد رحل الأوفياء عن دنياه ، وبقى هو مع نفر غدارة نكث، فما أشقاه بهم:

بقيت بعد وفاةٍ لاتخيس لهم عـهـدٌ عـلـى نـفـر غـدارة نُكُثِ

بقيتُ بعد مصاليت الرجال على قومٍ هم نُظراءُ النسوة الطُمُثِ(٣)

كما مرضت النفوس وساءت الأخلاق ووهت عُرا الدين :

شحٌ مطاع ، هوى فى الدين متّبَعٌ فسقٌ صُراح ، قلوبُ الغلّ والحسَدَ

لاخَصلة من خصال البِرّ واحدةٌ لاهِمـة لاتُقَى لاخـيـرَ فـى أحَدِ(٤)

وهاهو الفسق قد شاع ، وأسرف الناس فى ارتكاب المآثم، حتى حل بهم غضب السماء فتنا هوجاء تعصف بهم ، وهم فى غيهم سادرون لايرعوون ، ومن يغضب للدين إذا لم يغضب الزمخشرى الذى وهب نفسه وحياته لخدمته ؟ إنها مآثم تترك كل ذى عقل كمدا حزينا :

هـذا وإن أحـق الـبـائـقـات بـأن تُبيتَ أهلَ النهى مستشعرى الكمَدِ

مـآثم ركبت حتى استُحِقَ بها ماحلّ بالناس من شؤم ومن نكد

وإنهم خائضون اليوم لُجَتها جياشةَ الموج ترمى الشط بالزَبَدِ

لاينتهون ولايُلقى لما اجترحوا بالا أخو فطنةٍ ماش على جدَدِ(٥)

١- الديوان ١٣٤ . ٢- الديوان ٥١٧ .

٣- الديوان ٢٦٣ . ٤- الديوان ٢٩١ . ٥- الديوان ٢٩١ .

شعر الهجاء:

شعر الهجاء قليل عند شاعرنا، كما أنه شديد الصلة بالشكوى ؛ ذلك لأن معظمه يأخذ الطابع الاجتماعى أو الدينى ، فهو فى هجائه غيور على الأخلاق والدين ، يذم كل من يتهاون فيهما وماأكثرهم فى عصره، وبهذا يلتقى عنده شعر الشكوى والهجاء، وهو ماسوغ جمعهما فى حديث واحد، فمعظم أهاجيه شكوى تأخذ طابع الحدة وتنزع إلى الذم .

من ذلك هجاؤه لمن حادوا عن الحق ، واتبعوا شهواتهم فى معرض حديثه عن أهل التقوى الذين تمسكوا بالحق :

قد ارتكزوا فى موطن الحق ثُبَّتا   وأكثرهم عن مركز الحق حائِصُ

ترى سابحا منهم قفا شهواتِه   كما عاد مُهْرٌ يطلب الخيل قامِصُ

حراص على الدنيا ، سِراع وراءها   وما الحرْص إلا للديانة حارِصُ(١)

وقريب من هذه المثالب مايهجو به أهل خوارزم، حيث يقول فيهم :

قوم مُن الخيرِ عقْم لاخلاقَ لهم   وبعضهم إن يلد أُكرومةً يئد(٢)

وفى مجال الهجاء الشخصى لانجد له إلا نموذجين ، الأول مقطعة من بيتين فى هجاء عبد العزيز، يقول فيهما :

لعمرك ماعبد العزيز بكافل   رضىٍّ مساعيه ، وماهو بالكافى

وإنك واستسقاء مثلِكَ مثلَهُ   كما استظهر الدُلفين بالسمك الطافى(٣)

والنموذج الثانى يهجو فيه المغربى وأتباعه وهم خصومه فى مذهبه الاعتزالى، وهى أبيات أتت فى قصيدة مدح بها ابن وهاس ، وشكره على مناصرته إياه على هؤلاء الخصوم، وفى ذلك يقول :

١- الديوان ٩ .

٢- الديوان ٢٦١ .

٣- الديوان ١٦١ .

زأرتَ وراء ديـن العـدل زأراً ... وقـد نبحتْ كلابُ المغربىّ
فقد أشجيتهنَّ بكلِّ عظْم ... تنشَّب فى اللهاة وفى المرى
وسمْت الوُرْق تحت الزُرْقِ صُغْرا ... ووقعا للأكف على القفَىّ
وفاقرةً من الجلدات حلت ... على ظهر الحلولى الشقى
ومن يغضبْ لدين الله يجمع ... مراضيهُ إلى الأجر السنى
وليس الجبرُ والتشبيه إلا ... بقيَّةَ إرْثِ دين جاهلى(١)

وقريب منه هجاؤه لحاسديه مبينا سبب حقدهم عليه :

اضطر حسّادى فباءوا به ... أنّى من السؤدد فى بؤبؤ
وأننى السابح فى لجة ... تيارها ينشق عن جؤجؤ
وأننى الغائص فى غورها ... أخرج منها فاخر اللؤلؤ
لذاك كل منهم صاغر ... كصعوة فى مخلب اليؤيؤ(٢)

وهجاؤه لغيره من شعراء عصره طالبا من ممدوحه أن لايعير شعرهم سمعا:

ولاتعر سمعا ولاتُرْعِهِ ... قوما لهم حول صهيلى نُهاق
فالفارس العارف بالخيل لا ... يقبل للمضمار إلا العِتاق
ويحك لاتعجبك أجسامُهمْ ... فهْى رياح نفُخَتْ فى زِقاق
تجمَّع الأضْدادُ فيهم فأحـ ... ـلام رقاق ، ووجوه صفاق
قولهم غث ، وأذهانهمْ ... تغلظ عن فهم المعانى الدِّقاق(٣)

تعليق على شعره فى الشكوى والهجاء:

وإذا كان لى تعليق على شعر الزمخشرى فى الشكوى والهجاء ، فهو أن شعر

١- الديوان ٢٦٦ - ٢٦٧ .

٢- الديوان ٤٧١ .

٣- الديوان ٤٦١ .

الشكوى عنده يتسم بالصدق الوجدانى؛ ذلك أنّه تعبير عما يعانيه الشاعر من أسباب هذه الشكوى بأنواعها: من الجور الاجتماعى والانحلال الأخلاقى والتحلل الدينى ، وكلها آفات ومآثم تأباها نفس طبعت على الطموح والإباء ، وتأصلت فيها قيم الأخلاق ، وكان للدين فيها مكانة مقدسة ، تلك نفس الزمخشرى، فإذا جاء شعره شاكيا هذه المآثم فإنما هى شكاية القلب وألم النفس .

وسمة أخرى لشكاياته ، هى أن العنصر الشخصى يكاد يتوارى فيها ، فهو يشكو من أجل الفضيلة بصورها المختلفة ، صورة العدل الاجتماعى الذى يضع كل شئ فى موضعه ، ويعرف لكل إنسان قدره ، وصورة الأخلاق النبيلة والطبائع السوية ، وصورة التمسك بأهداب الدين والاعتصام بحبله ، والتقديس لشعائره، وحتى عندما يشكو جور الزمن عليه يعطى شكواه الطابع العام ، فيجعل هذا الجور جورا على أهل الفضل وذوى الحق ، وهذا مايزيد من قيمة هذا الشعر عند الزمخشرى بما يعكسه لنا من حياة المجتمع ، والتيارات التى ماج بها فى هذا العصر، ومايبينه من العنت الذى لاقاه ذوو العلم والأدب والدين فيه .

وماقيل عن شعر الشكوى ينطبق على شعر الهجاء، إذا تجاوزنا عن هذه الأبيات التى اتخذ الهجاء فيها طابعا شخصيا ، هذا إلى أنه فى هجائه قد سما عن فاحش القول وبذىء الكلام، وترفع عن طعن الأعراض وذكر العورات ، وهذا هو العهد بشاعر كالزمخشرى بعلمه وصلاحه وخلقه .

الفصل الخامس

الفخـــــر

للشاعر مطولة فى الفخر بلغت تسعة وثلاثين ومائة بيت ، إلى جانب ماله فيه من القصائد القصيرة والمقطعات ، ومانجده من أبيات الفخر فى قصائد المدح أو الشكوى .

والزمخشرى عالم فاضل ، وأديب نابه ، شديد الاعتداد بفضائله ، عظيم التقدير لمناقبه ، كثيرا ماتغنى بها فى شعره فى فخر واعتزاز .

وأجود فخرياته وأكثرها حرارة ماجاءت ممتزجه بشكوى الزمن ، والسخط على قيم المجتمع الذى لم يعرف قدره ، تظللها روح الألم والأسى، نحس ذلك فى قوله مفتخرا شاكيا ، أو شاكيا مفتخرا .

ومِمَّا شجانى أن غُرَّ مناقبى ... تغنَّى بها الركبانُ بين القوافل

وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى ... وسارت مسيرَ النيِّراتِ رسائلى

وكم من أمال لى وكم من مصنَّف ... أصاب بها ذهنى محزَّ المفاصل

ولى فى دقيق النحو والنقد منطقٌ ... إذا قلته لم أبق قولا لقائل

غنى من الآداب لكننى إذا ... نظرتُ فما فى الكف غيرُ الأنامل(١)

إن جودة هذا الشعر تنبع من صدقه ، ومن هذه المفارقة التى نجح الشاعر فى تقديمها لنا واضحة جلية فى البيت الأخير ، بعد أن مهد لها بأبياته السابقة .

ومثل هذه المفارقة المؤثرة نجدها عندما يشكو ضيم الحبيب وخسف الزمان، على ما اتسم به من كرم النفس وعفتها وما جبل عليه من همة وفضل ، فيقول :

خليلى كم ضيم أُجَرِّعُ كاسَهَ ... وخُطة خسف من زمانى أُسامُها

على أن نفسى لاتُذام بوصْمةٍ ... وأيْتُما حسناء يعدمُ ذامُها

---

١ – الديوان ٧٠ .

عفاف من الأشياخ إرثٌ وهمةٌ وفضل ثلاث ليس ينفى تمامُها
إلىَّ دنيّاتُ الأمور بغيضةٌ وقد نال منى كل حب جِسامُها(١)

وقد يأتى فخره فى أثناء الغزل ممتزجا به كقوله :

واستزلت سعادُ منىَ رزينا ثابتَ الحلم، والحليم يَزِلُّ
رجلاً زانه عفافٌ وفضلٌ مثل مازانها حياءٌ ودل(٢)

ومنه :

أيروعنى ظبى الكِناس ، وإن لى قلبا يضاهى قلبَ ليث عرينِ
أنا لا تبدَّلُ بالهوينى شِدَّتى وخشونتى ليستْ تُباع بلينِ(٣)

وقد يأتى الفخر ممتزجا بالمدح فى إطار البيت الواحد أو الأبيات المتعددة، كما فى قوله يمدح عبيد الله ويشكره على كسوة أهداها إياه :

كسانى عبيد الله للحمد كاسبا فيا خير مكسوٍّ ، وياخير مكتسبْ
بنو خلف فى المكرمات خلائفٌ وإنى فى خوارزمهم كعبةُ الأدبْ
فإن يُهدِ من دار الخلافة كُسوةً إلى كعبة الله الإمامُ فلا عجبْ(٤)

وغالبا مايختم مدائحه بالبيت أو الأبيات يشيد بقصيدته ويتيه بشعره وأدبه. ومما هو جدير بالتسجيل فى هذا المقام مايلاحظ على فخر الزمخشرى الذى يأتى فى قصائد المدح، حيث تبرز شخصية الشاعر بفضائلها وكبريائها إلى جانب شخصية الممدوح، لاتقل عنها إن لم تسم عليها ، وكيف لا، وهو يرى أن قصائد مدحه لايكافئها عطاء مهما بلغ ، وفى ذلك يقول :

كسوتك اليوم حلةً غلبت قيمتها فى النفاسة القِيماَ
محكمةَ السنج ليس جِدَّتُها تبلى ، وإن طال عهدها قِدَما

١- الديوان ٥٤ .
٢- الديوان ٤٩٩ .
٣- الديوان ٣٤٧ .
٤- الديوان ١٢٥ .

يقول بعد السنين ناشرها   لله من حاكها ومن رقمَا
فأولني حلّةً تكافئها   فائقة لاأريدها أَمَمَا
يرفلْ كلانا في ثوب صاحبه   ثوبان ثوبُ الثناء خيرُهما
كنتُ زهيرا إذا مدحت فكن   أنت إذا ما منحتني هرَما(١)

بل إنه ليذهب إلى أبعد من ذلك فيعد مدائحه وساما على صدر ممدوحه حسبه بها فخرا؛ لأنها مدائح شاعر فاضل :

وحسبك مفخرة أن تُرى   وشكرُك ملء فم الفاضل(٢)

وقد يأتي فخره في معرض وصف الراحلة مازجا الوصف بالفخر، في إطار البيت الواحد :

فوقها كالحسام ما بيديه   من كلال ، ولابحديه كلّه(٣)

أو مستطردا من الوصف إلى الفخر في الأبيات العدة:

بين شرحي قتودها أريحي   مستطيلُ الذراع رحبُ الباع
دائم الحمل بين جنبيه قلبا   واسعا كالفضاء في الاتساع
وله همة إلى النجم ترنو   مِنْ معال بعيدةِ الارتفاع(٣)
جامع النفس إن أريدت على   الضيم تأبت بعزة وامتناع(٤)

أما مطولته في الفخر(٥) فقد جمع فيها ماتفرق في غيرها من فضائله ومفاخره، افتخر فيها بكرم نسبه ، وسلامة عقيدته، وصحة مذهبه، ومناقب أساتذته ، ونبوغه في فنون العلم والأدب ، وأستاذيته ، وكرمه ، وصلته لأرحامه ، وبره بأقاربه ، وصدق قوله ، وتقاه ، وعفته ، وصبره على الشدائد.

١- الديوان ٤٨٢ .   ٢- الديوان ٥٢٢ .
٣- الديوان ٥٠٨ .   ٤- الديوان ٤٩٤ .
٥- الديوان ١٨٤ - ١٩٥ .

ومما قاله فى هذه القصيدة مفتخرا بعلمه وأدبه :

ترانىَ فى علم المنزّل عالما ... وما أنا فى علم الأحاديث راسفا

فللسنة البيضاء فىّ مناجح ... ويبغى كتابُ الله منى المعارفا

وما أنا من علم الديانات عاطلا ... بأحسن حلى لم يزل لى شائفا

فكم قد وَحَتْ يمناى منه دفاترا ... وكم قد وعت أذناى منه وظائفا

وما للغات العرب مثلى مُقَوِّمٌ ... أبىَ كلُ نَدْب مُتْقِن أن يخالفا

وليس لتثقيف الرماح كسمهر ... وليس كعمرو فى الرماية ثاقفا

أقيِّد عندى سِرَّها وصميمَها ... وأنفى أُشابات سُدًى ولفائفا

وبى يستعيذ النحوُ من أن يسوسه ... نهًى لم يجدها الذائقون حصائفا

فقل : أين خلَّى سيبويه كتابه ؟ ... يقل : حجر جار الله مأوای حالفا

ومافى رواة الكتب راويةٌ له ... سوى واحدٍ فانظر فلستَ مصادفا

ولو لم تكن لى غيرَ هذى فضيلةٌ ... لبرّزتُ سبّاق الأضاميم رأعفا

وعلما المعانى والبيان كلاهما ... أزف إلى الخطاب منه وصائفا

وصائفٌ زينات يتيّمن ذا الحجا ... وإن كان عِزهاة عن اللهو عازفا

إذا ما اجتلاهُنَ الحليمُ ازدهينه ... فرقص فوديْه وهزَّ المعاطفا

بنات لىُ استولدْتهُنَّ قريحتى ... فجئنَ هشاميات صدق شرائفا

نجائب قد نازعن نسبةَ مُقْرَمٍ ... نجيب لأنجاب ، وعفن المُقَارِفا

وعلمُ القوافى والأعاريضِ شاهدٌ ... بفسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفا

أقرّت بى الآداب أصلا لها ، ومَنْ ... رأى مشرفيات جَحَدْنَ المشارفا

وديوان منظومى يريك بدائعا ... وديوانُ منثورى يريك طرائفا

هما روضتا حَزْنٍ تدلى عليهما ... حَبِىُّ ربيع أرسل الدمعَ ذارفا

فواها له من وارف إثر ذارف تخايل وحفا بين أهضام واحفا[1]

إلى آخر هذه القصيدة الطويلة التى لايتسع المقام لذكرها كلها هنا .

تعليق على فخره:

وفى ختام الحديث عن فخر الزمخشرى أود أن أسجل مايلاحظه الدارس من أن فخره قد اتسم بالصدق ونأى عن المبالغة ، فلم يفتخر إلا بفضل قد عرف له ، ولم يتغن إلا بصفة قد تأصلت فيه ، ولم يته إلا بأعمال قد أنجزها .

كما كان للوجدان الدينى أثره فى معظم مفاخره ، فصفاته التى يفتخر بها هى صفات المؤمن الذى يتقى ربه ويتخلق بما أمر به سبحانه ، بل إنه يعد هذه الأخلاق نعما تفضل الله بها عليه .

كما يلاحظ من يقرأ شعر الزمخشرى أنه كان يعرف لنفسه قدرها ، ويعتد اعتدادا كبيرا بفضائله ومناقبه وتفوقه فى مناحٍ متعددة ، وكان شعوره بهذا التفوق لايكاد يفارقه ، فلا عجب إذا وجدنا نغمة التعالى والتفاخر تشيع فى معظم شعره .

❋ ❋ ❋

١- الديوان ١٨٨ .

الفصل السادس

الحـكمة

الحكمة نور العقل المضيء، ووحى النفس الملهمة ، وثمرة التجارب الواعية ، وقطوف الثقافة الواسعة العميقة ، يصوغها الأديب فى عبارة آسرة فتجمع إلى صدق المعنى وعمق الفكر رونق الأسلوب وجودة التعبير .

والزمخشرى قد تهيأ له من أسباب الحكمة الكثير: من قوة القريحة ، وصفاء الذهن ، وعمق النظرة ، إلى حياة طويلة ، ورحلات كثيرة ، واختلاط بالكثير من الناس على مستوياتهم المختلفة ، ثم كانت له ثقافته المتنوعة باللسانين العربى والفارسى ، ولايخفى ماللثقافة الفارسية من أثر فى هذا الجانب(١) ، وهو قبل هذا وبعده عالم أحب دينه ، وأخلص لقيمه ومبادئه ، وحمل مسئولية الإشادة بهذه القيم ونشر تلك المبادئ ، يصوغها حكما فى الوفاء والتواضع والكرم، والتمسك بالحق، والقناعة والإخلاص فى العمل، والتزهيد فى الحياة، والتذكير بالموت، إلى غير ذلك من المعانى الأخلاقية النبيلة .

ويتجلى اهتمام الزمخشرى بالحكمة فى أنه أفرد لها بعض المقطعات، ومن ذلك قوله مبينا أن الراضى بالمنكر كفاعله:

وإذا سفيه عضنى فى مجلس وهناك من غُرر المعاشر معشرُ
فهم الألى عضوا إذا ماهمْ رضوا وهمُ الألى مكروا إذا لمْ ينكروا(٢)

ومنها ماقاله فى الدينار وأثره فى قضاء الحوائج وتذليل الصعاب :

وإذا رأيت صعوبة فى مطلب فاحمل صعوبته على الدينار
يردْه كالظهر الذلول ، فإنّه حجر يُليّن قسوة الأحجار(٣)

١- يرى الدكتور شوقى ضيف أن تأثير الثقافة الفارسية يظهر فى جانبين : الحكم الكثيرة ، والصور والأخيلة الدقيقة . انظر الفن ومذاهبه فى الشعر ٦٧ .

٢- الديوان ٣٨٨ .

٣- الديوان ٣٩٠ .

ويتجلى ذلك الاهتمام بالحكمة بصورة أوضح إذا علمنا أنه أفرد لها قصيدة تربو على الخمسين بيتا وسماها «الحكيمة»[1] ، وكانت لها منزلة خاصة عنده، فقد كتب فى مقدمتها هذا البيت مفتخرا :

وقصيدة سميتها بحكيمة ... قد قلتها ليقال : من ذا قالها ؟

وقد ضمنها حكما كثيرة تعكس نظرة متأملة فى الحياة والناس ، وفهما ثاقبا لحقائق الأمور ، وتشف عن روح تهفو الى الإصلاح ، ونفس ترنو إلى الحق والعدل والهدى وترشد إليه ، في خشية لله واستحضار لقوة بطشه وشديد عقابه

ومما قاله فى هذه القصيدة :

وما الموت إلا حيةٌ فاغرٌ فما ... يَمُجُّ ذُعافا ليس ينزفه المَجُّ

وكل امرئ مستهدَف لمجاجة ... فمالهمُ عنه محيصٌ وإنْ ضجوا

وما العيشُ إلا سرحةٌ قيلَ تحتها ... سيُطْرَدُ عنها القائلون وإن لَجُّوا

ويارب مقفو الخطا بين قومه ... طريقِ نجاة ، مستوٍ عندهم نَهْجُ

ولو قرأوا فى اللوح ماخُطَّ فيه من ... بيان اعوجاج فى طريقته عجوا

وكم خابط فى شبهةٍ وهْو قائلٌ ... إلى الحق بالبرهان أهدى وأحتج

وكم من أسام تزدهيك بِحُسنها ... وصاحبها فوق السماء اسمه سمج[2]

ومنها :

وليس لذى العقل اتكالٌ على أخ ... وخال وعم ، إنما عمُّك الخُرْج

ويَحْرُنُ جدّ المرء بعد طِماحه ... وبعد عُباب البحر زاخرهُ يَسْجو

ومن ثبتت دون المطامع نعلُه ... فوا ها له هاتيك مدحضةٌ زلْجُ

ولاخير فى الرأي المهلوَجِ ، إنما ... يفيء بخير حين خالطه النُضْجُ

١- الديوان ٣٣ .

٢- الديوان ٣٥ .

ولم ينتفع إلا برأى محنّك ويورِثُ مغص الآكل الثمر الفج(١)

وكثيرا مايبدأ قصائد الرثاء والتعزية بمقدمة يمكن أن تسمى «مقدمة حكمية» لأنها تتضمن حديثا عن الموت والحياة والعمل الصالح والآخرة وغير ذلك، يصوغه فى قالب حكمى يعكس لنا خبرته وتجاربه فى هذه الأمور ، مستخلصا العبرة والعظة من الموقف الذى قيلت فيه القصيدة .

من ذلك قوله فى مقدمة مرثيته فى السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه :

قضاء ربك حد غير مسبوق باب يساق إليه كل مخلوق
سيان من ليس مرموق أحلّ وذو جاه بأبصار كل الخلق مرموق
وربُّ تاج وديباج يجرره كذى كساء رقيع الجيب مفتوق
حجْبُ الملوك يد المقدار تخرقها كم من حجاب بكف الدهر مخروق
ولاتردُّ الردى بيضُ السيوف ولا سمر الرماح ولازرق المزاريق
ولاقلاع منيفات محصنة بذادة ورماة بالمجانيق(٢)

ومن ذلك قوله فى مقدمة رثائه لخاله :

الدهر أنكد لايبقى على حال مازال يُلحق إدبارا بإقبال
أيامه ولياليه موكلة بالناس فى قطع آجال وآمال
يسر مرُّ الليالى من تمر به وفى مرور الليالى مر آجال
الناس فى هذه الدنيا كأنهم ظعن بواكر تحدى ، وهى كالآل
وللردى مشرع وراده شرع لافضل فيه على ذئب لرئبال(٣)

وهى كما نرى حكم تتجه إلى الوعظ والتزهيد فى الدنيا والتذكير بالموت ، كما أنها تساعد على الصبر والسلوان والرضا بالقضاء الذى لامفر منه ولامحاباة

١- الديوان ٣٦ . ٢- الديوان ٢٥٤ .
٣- الديوان ٢٥٠ .

فيه، وهى بذلك تلائم قصائد الرثاء وترتبط بها وجدانيا وفكريا .

وله غير هذه القصيدة وتلك المقطعات والمقدمات الحكمية أبيات فى الحكمة تتخلل قصائد المدح والرثاء والفخر والشكوى ، وفى هذه الأبيات نلاحظ ارتباط الحكمة بالفكرة العامة التى احتوتها ، وبالجو النفسى الذى يظللها ، وهى لذلك حكمة شاعرية نابعة من وجدان الشاعر ، ويمكن أن نتأمل صدق هذه الملاحظة فى قوله وقد هم بالرحيل عن رباع الهوان :

يسراها بالكور والأنساع ... ماربـاع الهوان لى بربـاع

إن سيرى فى السهْب والقاع خيرٌ ... من قعودى شبيهَ نقع بقاعِ

رعْىُ روض المنى على الحرّ عار ... إن روضَ المنى وخيمُ المراعى

ليس يأوى إلى القناعة إلا ... عاجزٌ لا يطيق كشفَ القناع(١)

فالبيتان الثالث والرابع حكمتان تؤكدان فكرته فى البيت الثانى ، وترتبطان بها أوثق ارتباط ، فالحكمة هنا تؤدى وظيفة فى التجربة الشعرية مما أكسبها قيمة فنية .

وإذا كانت الحكمة تأتى مفسرة للفكرة أو مؤكدة لها فقد يشفعها بما يؤكدها ويبرز معناها .

نجد هذا فى إطار البيت الواحد كما فى قوله :

وما الخير إلا فى امرئ متواضع ... وإن مسف المزن أخلق بالمطر

فالشطر الثانى من البيت صورة حسية أتت مؤكدة وموضحة هذه الحقيقة المعنوية، التى تضمنتها الحكمة فى الشطر الأول .

وقد يأتى ذلك فى إطار البيتين مثل قوله :

١- الديوان ٤٩٢ .

وإذا تعاضدت العواذل فَتَّ فى أعضادهن قوىُّ أعضاد الهمم
تالله لايثنى عنان غضنفر تكريرُ وعوعة الذئاب إذا عزم(١)

فقد أكد الحكمة فى البيت الأول بهذه الصورة الحسية فى البيت الثانى، بل إنه قد يؤكد الحكمة بأكثر من مؤكد، كما فى هذين البيتين :

والحر من مجده بالجود مقترن ما المجدُ مُجْدٍ بلا جود على بشر
ماينفع النصل لولا النصرُ يصحبه او حدة الظُّفْرِ لولا جدة الظفَرِ(٢)

وقد يذكر من قصص التاريخ وأحداثه مايؤكد ماقاله فى حكمته، كما يقول :

والمرء يؤتى من الشق الذى بعدت عنه مخيلة ذى حدس وتحقيق
ألم تر الشهمة الزباء كيف أتى هلاكها من رجال فى الصناديق(٣)

***

١- الديوان ٤١٤ .

٢- الديوان ٢١٩ .

٣- الديوان ٢٥٤ .

الفصل السابع

الغـــزل

قلما أفرد الزمخشرى لهذا الغرض قصيدة أو مقطعة ، وجل شعره فيه – على كثرته – جاء مقدمات لقصائد فى أغراض أخرى، كالمدح والفخر والشكوى .

وهنا يبرز تساؤل عن اتجاه شاعرنا فى غزله:

أهو الاتجاه العذرى بما فيه من وجد ، وهيام ، وبكاء ، ولوعة ، وإخلاص فى الحب ، والحياة لحبيبة واحدة لايعرف القلب سواها ؟

أم هو الغزل الحسى الذى يعشق صاحبه الجمال الجسدى ، فينشده حيث وجده ، مستمتعا به ماوسعته المتعة ، متغنيا بذلك فى ألفاظ متعففة متحرجة ، أو فى أخرى سافرة ماجنة ؟ أم هو الغزل التقليدى الذى درج عليه شعراء كثيرون لم يكتووا بنار الحب العذرى ، ولم يعرفوا حياة اللاهين بالحب المادى، ومع هذا حرصوا على أن لايخلو شعرهم من هذا الفن ، استكمالا لأزاهير الروضة الشعرية ، وسيرا على نهج قد رسمه سابقوهم من الشعراء، حين بدأوا به قصائدهم فى الأغراض المختلفة ؟ وفى شعراء هذا الاتجاه يقول الدكتور طه حسين: «وربما كان كلفهم بالفن الشعرى والإجادة فيه أشد من كلفهم باللذة لأنها لذة ، أو بالعفة لأنها عفة ، فلم يكن أحدهم يعنيه أن يقال : إنه ماهر فى تذوق لذات الحياة ، أو أنه مثال للعفة وطهارة القلب ، وإنما كان يعنيه أن يقال : لقد تغزل فأجاد الغزل ، وشبب فأحسن التشبيب »(١)

أغلب الظن أن غزل الزمخشرى ليس من النوعين الأولين ، فحياته وسيرته لاتقدمان لنا شاهدا على أنه أحب حب العذريين، أو لها وعبث واستمتع بالنساء استمتاع الشعراء العابثين الماجنين .

إنها حياة رجل أحب العلم ، وعشق الأدب ، وورث العفة ، وعاف الدنيا ، فترك

١- حديث الأربعاء د/ طه حسين ٢/١٦ – ١٧ طبعة دار المعارف .

الزواج ، وآثر جوار الله فهاجر إلى بيته الحرام، وعكف فيه متعبدا وباحثا ومعنما .غزله - إذن -أو لنقل معظمه من النوع التقليدى ، وتجاربه فيه تجارب فنية لاواقعية، اهتم به فأتى مقدمات لكثير من قصائده ، وهو من الشعراء الذين وصفهم الدكتور طه حسين بأنهم كلفوا بالفن الشعرى أشد مما كلفوا باللذة أو العفة .

وإذا قرأنا هذا الحوار الذى أداره الشاعر مع إحدى صبياته حيث يقول :

تقول سليمى : مالشعرك طيب وهل طاب شعر ليس فيه نسيب ؟

ربيع نفيت الورد عنه فقل لنا ربيع بدون الورد كيف يطيب ؟

شكايات أزمان ملكن قصائدى فلم يبق فيها للنسيب نصيب ؟(١)

أقول : إذا قرأنا هذا الحوار أدركنا أن لشعر الغزل مكانة خاصة عند شاعرنا ، فبه يطيب الشعر وتزهر روضته ، ويتم ربيعه .

وإذا كان شاعرنا صناعيا تقليديا فى غزله فلا غرابة إذا وجدناه يقلد الاتجاهات الغزلية المتنوعة .

الاتجاه العذرى فى غزله :

إنك تقرأ بعض غزله فتذكر قيس ليلى ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، وغيرهم من الشعراء العذريين ، وكأننا أمام محب تيمه الحب ، يريك حرقة القلب وضنى الجسم ، وحرارة الزفرات وانهمار الدموع ، ونفاد الصبر، إلى غير ذلك من المعانى التى حفل بها قاموس المحبين العذريين، من ذلك قوله :

رشأ كخوط البانة المياس مايرتضى غيرَ الحشا بكناس

الظبى يرعى فى الرياض ، فماله لم يرع إلا فى قلوب الناس ؟

فى وجنتيه ضوءُ مقباس ، وفى صدر المتيَّم حرقةُ المقباس

يبُقِى الذى يرمى إليه بنظرة مثل الذى يغدو صريع الكاس

١- الديوان ٩٨ .

إن السهام خواطئ وصوائب وسهام طرفك هلهلت قرطاسى

ياليت شعرى هل يحل بعاشق فى أرض عذرة مايحل براسى ؟

العشب ينبت فى مساقط أدمعى لم لم يحرّقْه لظى أنفاسى(١)

وقوله وقد سئل : هل يصبر على فراق الحبيبة :

سئلت هل تصبر عنها إذا فارقتها ؟ لاصبر قبل الفراق

لانظرتْ عينى إلى وجهها إن هم جفنى بعدها بانطباق(٢)

وقوله وقد أزمع أحبّتُه السير :

أزمعوا السير بكرة واستقلوا سقط الغيثُ حيث ساروا وحلوا

استقلوا ، فكيف لى بحياة ولقد متُّ قبل أن يستقلوا

استحلّوا دمى وفىَّ صلاح ودمُ الصالحين لايستحلُّ

ظعنوا لانتجاع غيثٍ وخلُّوا عبراتى ، وهنَّ وبل وطَلُّ(٣)

وما كان لنا أن ننخدع بهذه الآهات ولاتلك الزفرات ولا هاته العبرات، فنسلك شاعرنا مع شعراء الغزل العذرى ، فماهى إلا صنعةُ الفن ونزعةُ التقليد لشعراء عرفوا الحبَّ ولوعته ، وعاشوا له حياتهم ، ولم يشغلهم عنه بعضُ ماشغل شاعرناَ فى حياته العلمية الزاخرة .

ورغم أن هذه النزعة التقليدية المتصنعة هى الطابع العام لهذا اللون من غزله العذرى، فقد نجد له منه مايوحى بصدقه فى تجربة حبه، وفيما يصف من لواعج الشوق والحنين ، وذلك حين يذكر هموم الحب وأشواقه ودموعه وعجزه عن الوصول إلى من يحب بسبب مارمته به الأيام حين أصابته فى رجله ، وأضعفت جسمه فأنكرته الحبيبة بسبب هذه العلل ، فنشعر بأن هذا الحب مرتبط بواقعه

١- الديوان ٤١٥ .

٢- الديوان ٤٦٠ .

٣- الديوان ٤٩٩ .

وظروفه، بعيد عن الزيف والتقليد، كما يقول :

أعينوا على برح أقاسيه بارح ... لسانح همٍّ يعترينى وبارحِ

أعينوا على عينٍ أكفكفُ دمعها ... ويغلبنى فيض الشؤون السوافحِ

أعينوا أخا لم يبق منه الهوى سوى ... خيالٍ لرأى العين ليس بلائح

يحن اشتياقا حين يسمعُ أو يرى ... سنا البرق أو سجعَ الحمام النوائحِ

يحن إلى سُعدى ، ودون مزارها ... صحاصح بيد دون بيد صحاصحِ

ومن لأخى الجسم العليل بقطعها ... وأعيتْ على أهل الجسوم الصحائحِ

غمرتُ بفضلى والتعففِ وصمة ... أصابت بها الأيام بعض جوارحى

فلا تنكرى أنى أُصِبْتُ بمثلها ... فكم من فلول فى شفار الصفائح(١)

إن صدق الشاعر فى بعض هذا الغزل وهو الحديث عن علته الجسمية يرجح صدقه فى الحديث عن حبه وتمنع الحبيبة عليه ، وليس ثمة مايمنع أن يكون الزمخشرى قد عرف الحب فى فترة شبابه، ولعل إخلاصه فى الحب ، وعجزه عن الظفر بمن أحب كان وراء انصرافه عن الزواج .

الاتجاه الحسى فى غزله :

اذا تجاوزنا هذا الاتجاه العذرى بما فيه من لوعة وضنى ودموع ، ويممنا شطر الاتجاه الثانى ، اتجاه الغزل الحسى، رأينا الشاعر فى تقليده لأربابه قد ضرب بسهم وافر هائما بالجمال الجسدى ، واصفا أياه ، متغنيا به ، ولكنه الجمال الذى عرفه شعراء هذا اللون قبله ، والصفات التى توارثوها فى شعرهم، إنه التقليد فى كل شئ حتى أسماء الحبيبات ومواطنهن .

ومن غزله الذى نحا به هذا المنحى قوله :

١- الديوان ٥٨ .

مَنْ مُنصِفى من شادن تياه	شغفى به كجماله متناه

ألحاظه فتكت بروحى آه من	ألحاظه تلك الفواتك آه

ياحبذا ريًا مُقبَّلِهِ التى	أشتمها عند التقاء شفاه

أطيب بها ريًا تضوّع سحرةً	من فيه وقت تغير الأفواه

مافوه إلا كاس ريحانيَّة	صهباء فى رشف وفى استنكاه(١)

وقوله :

نأت بردْفٍ كالقضيب ، وحركت	قداً كخُوط البانة الميال

وتبسمتْ ومَضَان بَرقٍ لامع	فى متْنِ أسحمَ عارضٍ هطّال

عن أشنب كالأقحوان مرتل	يروى الضجيع ببارد سلسال

كالزنجبيل مزجتَه بمُدامةٍ	غنيت عصورا فى مهَبِّ شمال(٢)

وله شغف كبير بالتركيات ، وتعجبه منهن العيون الضيقة الحوراء، حتى إنه ليؤثرهن على ذوات العيون النجل ممن تغزل بهن الشعراء قبله، وفيهن يقول :

ألاقل لسعدى : مالنا فيك من وطر	وماتطّبينا النجلُ من أعين البقر

فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت	عيونهمُ ، والله يجزى من اقتصر

فإن العيونَ الضيقاتِ وأهلَها	بهم علقت منا الضمائرُ والفِكَر

إذا نظروا لم يبد إلا احورارُها	وإن ضحكوا ضموا الجفون على الحور(٣)

وتستثيره منهن هذه المفارقة بين سقم الجفن وقوة فتكه ، وبين فتور اللحظ وشدة أثره، وبين ضيق العين واتساع طعنتها ، فلا يفتأ يسجلها فى شعره بصور متنوعة منها قوله فى القصيدة نفسها :

١- الديوان ٣٥٦ .	٢- الديوان ٣٥٨ .

٣- الديوان ٩٠ .

بنفسي قويٌّ لحظُه وهْو فاترِ ... كذا اللحظ أقوى مايكونُ إذا فتر

تضايقت العينان منه وإنَّهُ ... يوسع في القلب الجراحَ إذا نظر

ويقتل بالجفن الضعيفِ ، ولم أزل ... أعوذ بربي من ضعيف إذا قدر(١)

ولما كان الغزل هنا- في غالب الظن- تقليدا وصناعة فنية ، لاارتباط له بواقع الشاعر وحياته وجدنا الشاعر يتغزل غزل اللاهين العابثين من الشعراء الذين لم يقنعوا بالنظر إلى جمال المرأة يمتعون به عيونهم ويتغنون به ، وإنما متعوا حواسهم الأخرى ، فتم اللقاء ، وطاب العناق ، وتلاقت الشفاه ، وارتشف الرضاب

إن شاعرنا يأبى إلا أن يسلك في غزله كل درب سلكه شعراء الغزل قبله ، وهذا درب سلكه كثير من الشعراء من أمثال عمر بن أبي ربيعة وبشار بن برد وصريع الغواني ، وإن كان شاعرنا قد سلكه بشعره لابقدمه ، فقد كان لقدمه مكان آخر حيث محراب العلم وحلقات الدرس ، وتنقيح الكتب ، وحج البيت ، ومجاورة الله فيه .

ولكنه شاعر ، ولابد أن يستكمل شعره شتى الفنون ، وأن يستكمل فنه كل الألوان ، وعليه ألا يبدو مقصرا عن شأو سما إليه شاعر قبله .

إنه عالم عرف جد الحياة ، وعفة الذيل ، وزهد، وتنسك ، ولكنه – مع ذلك – شاعر ، عليه أن يكون كغيره من الشعراء ، فإن قصر به العمل فليسعفه القول ، ومن هنا كانت هذه المفارقة بين الواقع الجاد لشاعرنا وغزله اللاهي ، مفارقة يسجلها في شعره فيقول :

أنــا ذو عفــةٍ ونُسْكٍ ولكــن ... شاطرٌ في هوى الملاح خليعُ(٢)

ولكننا حين نقرأ ماقاله الزمخشري في هذا النوع من غزل اللاهين نجد أنه جانب فاحش الألفاظ وداعر الكلمات ، وآثر الكلمة المتحفظة ، واللفظة المتحرجة، واستغنى بالتلميح عن التصريح .

١- الديوان ٩٠ .

٢- الديوان ٥٠٢ .

ومن غزله الذى يمثل هذا المنحى :

بلى ربَّ ليل قد طرقتَ خِباءها ... فبتُّ تناغى بعض غزلان أبطح

وباتت سدولُ الليل ترخى عليكما ... وتحجب عين الكاشح المتصفِّح

فأقرح أحشاء الضجيعين منكما ... تفرِّى الدجى عن مثل جبهة أقرح(١)

ومنه :

ياحبذا ليلةً خلوتُ بها ... تلثمنى تارةً ، وألثمها

مازلت سكران لا إفاقة لى ... منذ سقانى عقارَه فمها(٢)

ومنه:

ماأنس لا أنس أياما تصانعنى ... بكل مضطمر الكشحين مقدود

كم ارتشفتُ رضابا كالعُقار ، وكم ... ألصقتُ خدِّى بخدِّ الكاعب الرود(٣)

ولكنى لاأنكر أن مثل هذا الشعر قد استوقفنى متسائلا : ألا يمكن أن يكون الشاعر قد ألم فى فترة صباه وشبابه بشئ من لهو الشباب ونزواته، وعندئذ يكون لغزله هذا صلة – على نحو ما– بواقع حياته ؟ إننا لانعرف الكثير عن حياته فى تلك الفترة ، وإن كنا لانشك فى أنه كان فيها طالب علم مجدا ، فهل كان إلى جانب ذلك صاحب حب ، وفتى لهو ، وشاب لذات ؟ وقد سبق أن فصلت القول فى هذه النقطة بعض التفصيل فى الحديث عن حياته ولا أجد مايستدعى تكراره هنا .(٤)

غزل النساك:

ولانلبث أن نجد وجها آخر لغزل الزمخشرى ، لعله أقرب إلى طبيعته ، وأصدق تعبيرا عن واقع حياته ، نعرفه فيه رجلا عرف الله واتقاه ، فعاف الهوى

١– الديوان٨٥ .

٢– الديوان ٤٨٥ .

٣– الديوان ٢٢٠ .

٤– انظر : ٦٥ – ٦٧ من هذه الدراسة .

وتأبى على إغراء الجميلات فى شدة لاتعرف الهوينى ، وخشونة لاتباع بلين ، وعفة ورثها عن آبائه ، وشغف إلى معالى الأمور .

فى هذا النوع من الغزل ، وإن شئت فقل الترفع عن الغزل أو عن هوى الغزلين يندرج قوله :

أتبز عن عطفى رداء الدين ... أجيادُ غزلان وأعين عينِ ؟
أيروعنى ظبىُ الكناس وإن لى ... قلبا يضاهى قلبَ ليثِ عرينِ ؟
أنا لاتبدّلُ بالهوينى شِدّتى ... وخشونَتِى ليستْ تُباع بلين
فادعى أمام إلى البطالة والهوى ... غيرى ، وما أنا منهما فدعينى
عفتُ الهوى ، وعففت عنه واقيا ... عرضى بدرع من تقاى رصين
وزويت عن بيض الدمى شغفى إلى ... بيض العلا وتطّربى وحنينى
وركضتُ فى جلباب آبائى الألى ... عرفوا بشأو فى العفاف بطين(١)

إنه متعفف عن الهوى ، حريص على ألا يقع فى حبائله، فإذا حدث مالايريد وخفق قلبه للحب فإنما هو قضاء الله ، ولاذنب له فيه:

واعذر فإن القضاء تيمنى ... لاذنب لى ، ليس ذاك من قلبى(٢)

ومع هذا يظل فى حبه حَدِبا على دينه ، متشبثا بعفته ، له من تقواه ومروءته وفضله مايعصمه من الزلل ، فإذا كان وصال فإنما هو وصال محب تقى لايبيح لنفسه الخلوة بحبيبته، بل يؤثره وصالا مع أصحابه وصواحبها ، وصالا يقول فيه :

ويجمعنى وإياها وصالٌ ... على أن الوصالَ مع البقيّه
فما ثلمت إذن دينى وإن لم ... تزل كبدى لقلتها رميّه

١- الديوان ٣٤٧ .
٢- الديوان ٤٧٤ .

قبيح بى إلى الفضل انتساب . وإلمام بأفعال رديه
لفقت مروءتى بالدين لفا فدينى والمروءة لى سجيه(١)

فإذا كان اللقاء بعيدا عن الآخرين كان له من عفته وتقاه أشد رقيبين ، فبهما يصون نفسه ، ويصون حبيبته ، فإذا هو لقاء الأعفاء ، وحب الأطهار لاتدنسه ريبة ولا يشوبه فحش، كما يقول :

لكن تصان بثوبى عفة وتقى فما نضوتُ لها بردى ومانضت(٢)

لقد تنسك ، وسلك سبيل الرشاد، وارتدى لباس التقوى ، وعار على مثله أن يلم بالغى ، وأولى بالجميلات أن يصرفن عنه سهام أعينهن؛ لأنها تفتك بتقواه، وما أشد ذلك على نفسه إن وقع، إنها الحسرة التى تنهك النفس غاية النهك :

فلهفى على تقوى قصرتُ ستورها على ، فأهوت مقلتاها لهتكها
وعارٌ على نفسى اطراحُ رشادها وإلمامها بالغى من بعد نسكها
وماينهك النفس العزيزة ناهك كموقف عار ، تلك غاية نهكها(٣)

ولكن سهام الحبيبة تصيبه، بل تكاد تفتك به ، وهنا يهتف بها مستجيرا منها ، مذكرا بصلاحه وتقواه، وبالدين الذى حرم قتل أمثاله من الصالحين :

بالله لاتقتلونى إنى امرؤ ذو صلاح
وقتل مثلى حرام فى الدين غير مباح(٤)

إننا هنا أمام نوع من الغزل يمكن أن نسميه «غزل النساك» وهو – كما سبق أن قلت – أقرب إلى طبيعة شاعرنا وواقع حياته، لاسيما فى الطور الثانى منها بعد أن مرض مرضته المنذرة ، وزهد وتنسك ، وشغل نفسه عن الدنيا وصرفها إلى الآخرة والتزود لها ، وآثر جوار الله فى بيته الحرام متفرغا للعبادة والعلم

١– الديوان ٢٧٩ . ٢– الديوان ٢٢٦ .
٢– الديوان ٥٢ . ٤– الديوان ٥١٢ .

والأدب، متخيرا منهما مايخدم الدين ويتوسل به إلى الفهم الصحيح له .

التمنع على الحبيبات:

وقريب من هذا مذهبه فى التمنع على الحبيبات اللائى أولعن به وأصبحن لايطقن فراقه، وإن كان هنا يتدلل عليهن ، متخذا دور المحبوب لا المحب، لقد دعينه إلى الوصال فتأبى عليهن تحرجا وإيثاراً لطلب المعالى :

دعتنى إلى الوصل الدمى غير أننى ... حمانى جواب الداعيات التحرج

ونفسٌ جسيمات المعالى تشوقها ... إذا غزل شاقته خودٌ وهودَج(١)

لكنهن قد وقعن فى غرامه ، وأصبحن يتمنين وصاله ، حتى إذا هم بالرحيل اعترضن طريقه، يرجونه عدم الرحيل ، ويتوسلن إليه أن يقيم بجوارهن، شاكيات باكيات، يذكرنه بطيب الإقامة ولذيذ المتعة معهن، لكن الشاعر يأبى إلا أن يرحل فى جلد لا تنال منه دموعهن وشجاعة أسد لاترق لبغام هاته الظباء .

من ذلك موقفه مع سعاد حين هم بالرحيل، حيث يقول :

قالت سعاد احطط رحالكْ ... واردد إلى المرعى جمالكْ

طنّب خيامك للإقامة ... عندنا ودع ارتحالك

كانت منك وصالنا ... حتى تمنينا وصالك(٢)

ولسعدى موقف قريب من موقف سعاد، وإن كانت أشد منها لوعة وأسى يقصه الشاعر علينا فيقول :

تصدّت لنا تثنى أزمتنا سعدى ... غداة انتوينا عن مغانى اللوى بعدا

وأخضل خدّيها دموع تتابعت ... تتابع درٌ خازلٍ سلكهُ العقدا

وجاءت بشكوى لو تمر ببعضها ... على شجر الخابور ماأورقت وجدا

١- الديوان ٣٩ .

٢- الديوان ٣٦٩ .

وقـالـت أعـن نجدٍ وروحـائه إلـى تِهامـة ، لاحـييـتَ مـن تـاركٍ نجدا
ضـلالا لرأي مـثـلِ رأيك، بئس مـا صـنعـتَ، أمـا والله لـم تـلْهَمِ الرشـدا
أعـن ظـل أيـكٍ وارفٍ مـتـفـيأً إلـى حزَبيداء يـذيب الـصـفـا الصـلْدا
أسـارٍ إلـى أرض الـقـتـاد فـهـاجـر إلـيهـا الـعـرارَ الـطيِّبَ الـنـشرِ والـرنْدا
أمـخـتـار ثـمـد آجـن مـاأمـره عـلـى جمَّةٍ زرقاء أعـذب بـهـا وردا(١)

وهذه تماضر تعترض مسيرته شاكية منتحبة، فيردها بقوله :

حـتَّى رويـدا لـن يـرق لـظـبـيـة ويـغـامـهـا لـيـثُ الـعـريـن الـزائـر
أرخى قناعك ياتماضر ، وامسحى عـيـنـيـك صـابـرة ، فـإنِّى صـابـرُ
لـو أشـبـهـت عـبـرات عـيـنـك لُجَّةً وتـعـرضـت دونـى فـإنـى عـابـر(٢)

ولعل شاعرنا يشبه فى هذا الاتجاه عمر بن أبى ربيعة فى تدلله على حبيباته وتيهه عليهن، وإن كان شبها لايعدو أن يكون شبه المقلد للأصيل، مع الاختلاف الكبير بين طبيعة الشاعرين .

وشئ آخر يشبه فيه شاعرنا عمر بن أبى ربيعة أو يحاكيه فيه، ذلك هو أسلوب الحوار الذى يصطنعه فى غزله فيحوله إلى موقف بينه وبين حبيبته، يقص مادار بينهما فى حوار قد يبلغ من الجودة والطرافة ما يجعله جديرا بالإعجاب، حيث يخرجه فى ثوب قصصى شائق .

ومن هذه المواقف الحوارية قوله :

ولـم أنـس إذ غـازلـتُه قـربَ روضـةٍ إلـى جنب حوض فـيه لـلـماء مـنحـدَر
وقـلـت لـه : جـئـنـى بـوردٍ ، وإنـمـا أردتُ بـه وردَ الـخـدود ومـاشـعـر
فقال : انتظرنى رجعَ طرف أجئ به فـقـلـت لـه : هـيـهـات مـالـى مـنـتـظـر
فقال : فلاوردٌ سوى الخدِّ حاضرٌ فـقلت له : إنـى قنعت بمـا حضـر(٣)

١- الديوان ٧٢ . ٢- الديوان ٣١٣ . ٣- الديوان ٩١ .

وقد يديرالحواربين الحبيبة وصاحبتها وقد رأته الحبيبة ينظر إليها، وخشيت جماعة العذال، فيقول :

طلعت علينا من رواق عال ... في ربْرَب يعثرن بالأذيال

فرمقتها فتطأطأت لحيائها ... وتوردُ الخدين كالجريال

وتلفتت فرَقا إلى لِدَة لها ... بيضاء مخطفة الحشا مكسال

قالت : فتى يرنو إلينا ، فانظرى ... ماذا تقول جماعةُ العذّال ؟

فأجابت اللدة اطمئنى وا أُمنى ... لايخطرن الهمُّ منك ببال

ماذا عليك وكل طرف طامح ... نحو الهلال ، وأنت أىُّ هلال

ثم استقلت بعد ذاك فسلمت ... أهلا بها ، وبذاك الاستقلال(١)

وطبيعى وشاعرنا يسلك دروب الغزل مقلدا فرسانه السابقين، وجاريا فى جميع حلباتهم تقليدا لايخلو من الجدة والطرافة، أن يتخذ عناصر هذا الفن من قاموسهم، فيقلدهم فى الأماكن وعرائس الشعر ، وصفات الحبيب ومواد التصوير .

١- الديوان ٣٥٨ .

الفصل الثامن

ثامنا : الوصف

على الرغم من أن الزمخشرى لم يفرد للوصف قصائد أو مقطعات بأكملها، فإن من يقرأ شعره لايخفى عليه هيامه بالوصف، يلتمس له المناسبات المختلفة أو يستطرد فيه ، استطرادا طويلا ، حتى إننا نستطيع أن نستخرج من شعره أوصافا لكل ماوقع تحت بصره أو ارتسم بخياله، ومن ذلك :

وصفه ديار الأحبة :

ويأتى فى مقدمة قصائده، فيصف الديار التى رحل عنها قاطنوها ، متغنيا بذكرياته الجميلة عن هذه الديار وأهلها ، من ذلك وصفه لوادى توضح :

أحبب إلى قلبى بوادى توضح ... وبنفحة النُّوار فى أشجاره

كم قد عهدنا فى أصائله وفى ... غدواته طيبا وفى أسحاره

واد اذا صفقت مذانبَه الصبا ... فغمتك ريحُ المسك من أقطاره

النبت ميالٌ على رملاته ... والماء سيال على أحجاره

وإذا الحمامُ غدا يكرر سجعه ... تعتادك الطربات فى تَكراره(١)

وهو لايكتفى بوصف مافى المكان من شجر ونبت وماء ونسيم ونفحات الطيب وسجع الحمام ، وإنما يرسمه لنا آهلا بكرام الرجال وفرسانهم وجميلات النساء .

فهو ممتلئ بالخيام :

وخيامُ حىٍّ لفّها ... نظمُ الثريا قربُها

فالخَيْمُ والأطناب أجفانٌ ... تشابك هُدْبها(٢)

١- الديوان ٣٣٩ .

٢- الديوان ٣٠٧ .

وأهله فرسان كرامٌ، لهم فيه مرابطُ أفراس ، ومباركُ إبل ، وأندية وأفنية ، يصف ذلك فيقول :

فإن ببطن الأيكِ للحى مالكِ ... مرابطَ أفراس لهم ومواقفا
وأهلَ إغارات يُرَوِّعْنَ آمنا ... وأهلَ إجارات يُطامِنَّ خائفا
وأفنيةٌ فيحا مطارح أرحل ... لشعث إليها يَعْسُفون التنائفا
وإنَّ لهم فيها مباركَ جِلَّة ... بشحم ذراها يرفعون المضايفا
متى ما أتاهم طارقون بسدفة ... قروهم بتكليل الجفان سدائفا
وأندية فيها أهِلّةُ أوجه ... وضاءٍ تريك النيِّرات كواسفا
أولى سحناتٍ شفَّ عن حسناتها ... تهللها ، والسيبُ ينهل واكفا

فإذا استوفى وصف ساكنى بطن الأيك عرج إلى وصف ساكناته، فقال فى نفس القصيدة :

وإن ببطن الأيك من ساكناته ... رعابيبَ يصطدن القلوب شواغفا
نشأن شبيهات ببيْضِ نعامه ... نواعمَ بيضاً بالفلاة الائفا
أسلن خدودا ، واحوررن نواظرا ... وطلُن قدودا، وابيضضن سوالفا
وأشبهن أفواها أفاويه طيبها ... فطبن أحاديثا ، وطبن مراشفا
ترى كل جيداءٍ تُنَصِّبُ جيدها ... كما رعتَ ظبيا بالصريمة حاقفا(١)

وهكذا نجد الزمخشرى يقدم لنا فى وصفه الديار لوحات فنية فيها جمال الطبيعة ومعالم الحياة ، لوحات يتأنّى فى رسمها ، ويكمل خيوطها ، وألوانها وظلالها، فيصف المكان ومافيه ومن فيه وصفا يستحق الإعجاب ، ويعكس ولعاً به، وقدرة فنية فيه .

١- الديوان ١٨٥ .

وصف السحاب والمطر والبرق:

ويأتى فى قصيدة المدح مقدمة لها أو استطرادا فى أثنائها ، ولكنه فى الحالتين لايترك هذه الظواهر الطبيعية دون أن يرسمها بكثير من التفصيل، فيصف السحاب ونوءه ، والمطر وأثره ، والرعد وصوته ، والبرق ولمعانه .

ومن نماذج وصفها قبل المدح عنده :

أيا عارضا تهمى شآبيب قطره ... وأيدى الصَّبا تمرى أفاويق دَرَّه

تمخض فى قطر الجنوب نشاصه ... فسالت شعاب الرقمتين بغمره

مُسِفٌّ إذا ألقى بواد بَعَاعه ... فما نجعة الرواد إلا بقطره

تباصره رعيانهم فتباشروا ... برِسْل يغوص الحى فى بعض غَزْره

ومرتجزٌ رعدا كإرزام فارق ... وقد همهم الحادى عليها بزَجْره

كأن بروقا لُمِّعا فى فروعه ... يدا صيقل يجلو مناصل بُتْره

نماه سِماكِىٌّ من النوء صادقٌ ... يكاد يمر القحط قبل ممره

به السنة الحمراء تنفض لونها ... وتأخذ من عام الحيا لونَ خضره(١)

ومما أتى استطرادا أثناء المدح مُفَصَّلا فيه أثرَ الغيث فى جمال الطبيعة :

صنوك الغيثُ طبقَّ الأرض خصبا ... فاكتسى الوهدُ وشيه والربيع

ترك العشبُ فاحما كلَّ تلٍّ ... شيَّبَ الثلجُ رأسه والصقيعُ

خفيت مدةً سرائرُ قلب ... الأرض حتى أذاعهن مُذيع

رجَّع الطيرُ فى الغناء فهزال ... غصنَ ذاك الغناءُ والترجيع

وغدا العندليب يدعو إلى النز ... هة والعندليبُ داع سميع(٢)

١- الديوان ١٦٦ .

٢- الديوان ٥٠٣ .

وصف الطبيعة الجميلة:

وللطبيعة الجميلة سحرها الذى يفتن الزمخشرى ويحرك فى شاعريته حاسة الوصف تعبيرا عما أحس به ، فيرسم مشاهدها متتبعا مظاهر الجمال ومصادر المتعة فيها ، وهذه إحدى لوحاته التى رسمها مصورا واحة جميلة .

وروحاءَ دهماءِ النبات تبلّقت ... ببيض خضيبات القوائم رُوحِ
تواصت حواليْها خزامى بطاحها ... كأنى بفار فى البطاح ذبيحِ
يعِجُّ كضوء المسك فاغمُ نشرها ... إذا انسحبت فيها ذلاذلُ ريحِ
يقول لها الرش السماوى - والصبا ... أعانت على تلك المقالة - فوحى
مضاجعُ سعدان ، مفارشُ حنْوة ... مناجمُ قيصوم ، منابتُ شيح
تعاون فيها رَوْحُ نجد وماؤه ... وأرض غذاة فى مهامهَ فيح
إذا ملّح المُكّاء رجعَ صفيره ... يجاوبها قمريها بمليح
كأن بديحا والغريض تطارحا ... على وتر للموصلى فصيح(١)

ونظرة إلى أبياته فى هذا الوصف ترينا تكامل اللوحة التى يقدمها لنا ، فالألوان فيها واضحة ، والأصوات مسموعة ، والخيوط بين عناصرها متصلة قوية، وإن كانت ألفاظها تنزع إلى الغرابة ، وتنتمى الى المعجم البدوى ، ولاغرو فالمكان الموصوف واحة خضراء تتوسط صحارى نجد .

وصف المعيشة الناعمة :

وهى العيشة التى تغريه صواحبه بها إن أقام بينهن ، وصدف عن الرحيل الذى هم به، إنهن - وقد استبد بهن الخوف من فراقه - يذكرنه بما يحبب إليه الإقامة بجوارهن ، والشاعر يرسم على ألسنتهن لوحة فنية لهذه الحياة الناعمة معهن بما تزخر به من وسائل المتعة وأسباب السعادة فيقول :

١- الديوان ١٥٨ .

قالت وقد ملأ الفراقُ فؤادها ... وجدا فهمٌّ شغافه بتشقّق
هلا أقمتَ ضجيعَ لهو تنثنى ... نشوانَ تحت ظلال عيش غيدق
فى أيكة حجب التفافُ غُصونها ... شَمْسَ الضحى ، فكأنها لم تشرق
وكأنما غاظ الحمائمَ نورُها ... فمتى تضاحك ناح كلُّ مطوّق
غَزِلَ الأصيل مع الأحبة والضحى ... مع كل مغنوج رخيم المنطق
متألق الخدّيْن يهتف وجهُه ... بالشمس، فىَّ غِنًى فلا تتألقى
عذبٍ مراشفه كأنّ رُضا بهَ ... نُطَفُ الحيا ممزوجةٌ بمروّق
بسلافة عتقت فشب شبابها ... ليست تشب الراح مالم تعتق
كادت تُحدِّثُ عن أوائل بابل ... لو أنها حبيت بفضل المنطق(١)

إنها صورة جميلة لحياة تنوعت فيها وسائل السعادة ، يعجبنا منها هذا الأسلوب القصصى الشائق، ويلفت نظرنا فيها هذه الاستطرادات التى تهدف إلى اكتمال رسم الصورة بتفاصيلها مع ربط وثيق بين عناصرها .

وصف الصحراء :

أما الصحراء فإنها مضلة يحار فيها القطا ، يهماء يعز فيها الماء، يهزأ السراب بسالكها حين يستبدّ به الظمأ ، فيهرع إليه يحسبه ماء على البعد حتى إذا جاءه لم يجد شيئا .

هذه بعض صفات الصحراء التى يقطعها الزمخشرى فى رحلته إلى ممدوحه يصورها فى شعره، فيقول :

ومضلة لو أنه استهدى الفتى ... كدر القطا فيها تعايت بالهدى
يهماء عز الماء فيها ، ثم إن ... تظفرْ بماء لم يكنْ لك موردا
نسجت عليه العنكبوتُ ، فكم به ... من لُحمة للعنكبوت ومن سُدى

١- الديوان ٣٣٦ .

ترشو أجنّتَها النطىُّ سرابَها ... طمعا بأن ينتاشهن من الصدى
واليلمعُ الخدّاع غاية أمره الـ ... إطماع لم ينجز لنفس موعدا
أدلجتُ فيها وادّلجت بصحبتى ... يستوضحون شهاب عزمى موقدا(١)

وإذا كان الزمخشرى فى وصفه الصحراء هنا يفتخر بعزيمته القوية التى بددت غياهبها ، وأضاءت مسالكها، فإنّه يصفها فى موطن آخر فى أسى وحسرة لأنها – باتساعها ، وخفاء معالمها ، ووهادها ، وجبالها ، وانتشار قطاع الطرق فيها تمثل حائلا بينه فى مكة وبين أحبته فى خوارزم ، يقول فى ذلك :

يحنّ وكم دون الأُفه ... لأذيال عاصفة من مجر
وبيداء يُطرِق فى طُرقها ... أدلاّؤها لخفاء الممر
وكم دون خوارزمَ من غائط ... بطين ، ومن جبل مُشْمخِرّ
أمال إلى النجم يافوخه ... كمصغ ليفضى إليه بسرّ
وكم دونها من أشابات قوم ... جُفاةٍ لخير ، كفاةٍ لشر(٢)

ولعل أهم مانلحظه هنا فى صفة الصحراء لغته بما فيها من ألفاظ غريبة جزلة، وتراكيب رصينة .

وصف الناقة :

وشاعرنا كثير الأسفار ، كثير التنقل :

مستديم الأسفار قد أكلته ... مثل ماتأكل الليالى الأهله
كلَّ يوم ركابهُ مثْقَلات ... كلَّ يوم خيامهُ مستقلّه(٣)

وناقته هى رفيقته فى هذه الرحلات ، ألفت الطريق إلى العراق، وتحب المسير إلى الحجاز ، وقد تحن إلى القدس فتيمم وجهها نحوه، إنها عراقية، حجازية،

١– الديوان ٣٢٢ .
٢– الديوان ٥٣٠ .
٣– الديوان ٥٠٨ .

شامية .

عراقية سارت بنا وكأننى ... بها بعد أيام حجازيةُ السير
ويا ربما حنّت إلى القدس حنّةً ... فراحت بنا شآمية روحةَ الطير(١)

فهى ليست مجرد راحلة يوجهها حيث أراد ، بل إنها رفيقة مخلصة له ، لها هوى فى هذه الرحلات ، فقد أحبت الأماكن التى يرحل إليها الشاعر بها، أو ترحل هى بالشاعر إليها، يحدوها حنين إليها لايقل عن حنين الشاعر وشوقه :

وجد بنا الحنين إلى حُنَيْنٍ ... وحنّت تحت أرحلنا المهارِى
لنا ولهن أكبادُ حرار ... إلى تلك الأبارق والحرار(٢)

وما أجمل أن يجتمع للشاعر وراحلته حب المكان وهوى من فيه ، عندئذ ستكون الرحلة حبيبة إلى قلبيهما ، يصف شاعرنا هذا التلاقى فى الهوى والاتفاق فى المشاعر بينه وبين ناقته، فيقول :

دون الديار برامتين فمنْعجِ ... بديار سلمى والرباب معرّجى
ومطيتى لو لم أعجْها نحوه ... كادت تكلمنى ، وقالت لى عُج
رعت الرياضَ بها مدبّجة ولى ... غفلات عيش كالرياض مدبَّج
وتوجدت فيها بأعْيَس ناعج ... كتوَجُّدى فيها بأحور أدعج(٣)

فلا عجب أن يهرع الشاعر إلى هذه الرفيقة المخلصة حين يلم بساحته هم أو كرب، إنها زورقه الذى يعبر به إلى شط الأمان حين تهيج بلابل نفسه :

وماهى إلا زورقى كلما طمت ... بلابل نفس ، فهى فراجة الكرب
وكم خرقُت بى فى مسيرة أشهر ... جيوب الفلا حتى وفدتُ على ربّ(٤)

وهى سريعة قويّة ، مأمونة العثار ، ماهرة فى ضروب السير ، ولاعجب فهى

١- الديوان ٣١ .
٢- الديوان ٢٧٦ .
٣- الديوان ٣٢٤ .
٤- الديوان ١٧٦ .

راحلته تخيرها حسبما يهوى ويريد :

كَثُرتْ هذه الرواحلُ كالنا ... س وماكلهن بالهلواع

والأمون الرُّواعُ شرطى ، ولاطا ... ئل عند الأمون غيرِ الرُّواع

أخذت فى مضايق الأرض تهوى ... كمذاع الأسرار فى الأسماع

وإذا ما القلاصُ غضَّ ادراع ... الليل منهن أدلجتْ فى اندراع

تترامى بها الفيافىَ عوجُ ... خُلِقتْ للذميل والإيضاع(١)

وصف الخيل :

وحديثه عن الخيل يأتى استطرادا ، فحين يتحدث عن الظغائن التى ارتحلت عن ربعها يستطرد إلى وصف الخيل التى خاضت بهن الفيافى .

وحين يرسل رسالة إلى ممدوحه يستطرد فيصف الحصان الذى يمتطيه الرسول . فإذا تحدث عن الفرسان لم ينس الحديث عن خيلهم التى تصاحبهم فى معاركهم .

فيتحدث عن سلالتها الكريمة قائلا :

فى العاصفات العوج نسبة حُضره ... وله المناسب فى سلالة أعوج(٢)

كما يقول:

أصيل المنتمى يدلى بعم ... جديلى وخال شدقمى(٣)

ويتحدث عن خِلْقته فى نفس القصيدة فيقول :

وأقبّ خوّار الفصوص تَثَنَّيا ... فى أسر محبوك العظام محملج

نهد لبعد سمائه عن أرضه ... يعطوفما يعطوه باعُ المسرجِ(٢)

١- الديوان ٥٩٤ .
٢- الديوان ٣٢٦ .
٣- الديوان ٢٦٥ .
٤- الديوان ٣٢٦ .

ويقول :

ذو ميعة يوفى بجيد أتلع ... وبعارض سبط وشدق أهرتا

ضافى المشيب لواكتسى من عُرفه ... نبذا كفاه عن الجلال إذا شتا(١)

ويقول فى وصف لونه :

الحسن أحمرُ وهُو أحمر قانئ ... يسبى النواظر بالرواء المبهج

فإذا رأته من بعيد قائما ... بدوية قالت ضرام العرفج

لم يخطئ التضريجُ غيرَ مواردالـ ... أوضاح منه فذاك غيرُ مضرّج

خاض اللجين ، وبالعقيق تسربلت ... أعطافهُ ، ومشى على فيروزج(٢)

وعن سيره وسرعته وقوته يقول :

إذا تحريكة الساق امترته ... تدفق مثل شؤبوب الحبى

يبارى الريح ، رَوْحُ من امتطاء ... ومَزْهَقة لأرواح المطىّ(٣)

ويقول :

لامرُهِج أدنى غبار وهو لا ... يألوك شقا للغبار المرهَج

وترى إلى قلل الجبال هُويّه ... كهَوِىّ فهر من علٍ متدحرج

وإذا ازدهى الخببُ الجياد وهاجها ... قال النجار له المهذّبُ هملج(٤)

ويقول:

نكت العتاقُ الأرضَ حين مراحها ... وهو الأبى على الونى أن ينكتا(٥)

وهكذا أحاط الشاعر فى وصفه للحصان بجوانبه المختلفة ، وإن لم يكن قد فصل الحديث عن أعضاء جسمه .

١- الديوان ٣٣٤ .
٢- الديوان ٣٢٧ .
٣- الديوان ٢٦٥ .
٤- الديوان ٣٢٦ .
٥- الديوان ٣٣٥ .

وصف المعارك الحربية :

وصف الزمخشرى معركة انتصر فيها خوارزمشاه على أعدائه من الكفار، وصفا نتعرف فيه على خلجات النفوس وخواطر القلوب، فضلا عن تصوير الجيوش وهجماتها وفرسانها وأسلحتها .

إنه يبدأ الوصف بالحديث عن تسلل الأعداء إلى خوارزم، فيقول :

دلفوا إلى خوارزم يحدوهم إلى ... أكنافها طمع لهم سوّاق
بكتائب مثل الغمام السود فى ... حافاتها الإرعادُ والإبراقُ(١)

ثم يصف جيش خوارزمشاه الذى هب للقائهم، فيقول :

فرماهم الملك الأعز بعسكر ... لجب كرَعْن الطود ليس يُطاقُ
جنباتهُ بمهابة وجلالة ... محفوفةٌ، ولواؤه خفّاقُ
والخلق بالدعوات فى آثاره ... وأمامَه بالنُّصرة الخلاقُ
فيه الكماة المعلمون تقلقلت ... بسلاحهم لُحُق البطون عِتَاقُ
من كل ذوّاق الردى حتى غدا ... مايُسْتَمَرُّ له بسفيه مذاق
يهوى إلى القِرْن الكمىّ بطعنة ... نجلاء منها تقْلص الأشداق
مستمطرون بكل أبيض صارم ... فى صفحتيه ماؤه رقراق
وقنا تمايلُ كالنشاوى بينها ... كأسٌ تدار من المنون دهاق(٢)

وتندلع نيران المعركة ، ويشتد هولها ، ولايطيق الأعداء لها صبرا فيهربون تحت ستار الظلام ، وقد تطايرت أرواحهم خوفا، يصف هذا الموقف فيقول :

وطوائف الكفار لما آنسوا ... نار الوغى لشرارها إحراقُ
ولقد رآها شمرت عن ساقها ... ملتفّةً بالساق فيها الساقُ

١= الديوان ٣٦٦ .

٢- الديوان ٣٦٧ .

جعلوا الدجنة جنة ، وتطايروا هربا فلا خبب ولا إعناق

والخِيفةُ الحمراء فى أرواحهم عاثت ففى أبدانهم أرماق

والله أتعس جدّهم فإذا رمَوا بصوارد لم يعْدها الإخفاق

وتقلّبتْ فإلى الرماة نِصالهمْ وإلى الذين رُموا بها الأفواق(١)

ويتعقب خوازرمشاه فلول الجيش المنهزم طاويا المراحل ، جادا فى اللحاق بهم ، حتى إذا أدركهم شن عليهم غارة قضت على بقيتهم الباقية، وفى وصف هذه الغارة يقول :

فطوى المراحل شطر عقر ديارهم ماعاقه عن طيّها عوّاقُ

مائتان من طول الفراسخ سارها فى السبع ليس لجفنه إطباقُ

معه الفوارس كلُّ أروع باسل يعدو به ذو ميْعة سبّاقُ

حتى إذا ما بيّتوا عرصاتها وأتيح عن فور بهن لحاق

شنوا عليها غارة مابينها قطعت فروع الشرك والأعْراقُ

كم مشرك لعبت به سُمْر القنا فشفى الغليلَ نجيعهُ المهْراق(٢)

ثم يمضى فى وصف ماحاق بهم ومانزل برجالهم ونسائهم .

ولعله قد تجلى لنا ماتسم به وصف هذه المعركة من إحاطة ودقة ترتيب، كما تتجلى لنا النزعة الدينية فيه ، فالمعركة بين المسلمين والكفار ، وقد انتصر المسلمون بتأييد الله نصرا أعز الإسلام واغتبط به المسلمون .

وكان لهذه الروح الدينية أثرها فى ألفاظه وتراكيبه التى ظهر فيها التأثر بالقرآن الكريم، فى أكثر من موطن فى هذه القصيدة ومنها :

وعنت وجوه الكافرين وفيهم من قبل كانت عزة وشقاق(١)

١- الديوان ٣٦٧ . ٢- الديوان ٣٦٨ .

٣- الديوان ٣٦٦ .

وإذا كان الزمخشرى يصف هنا معركة حقيقية فإنه قد يصف معارك خيالية يسوقه إليها الاستطراد .

فحين يشكو يصف الفارس الذى أصاب أماً فى ابنها فى معركة حامية الوطيس ليبين أن آلامه ليست أقل من آلام هذه الأم .(٢)

وحين يتغزل يصف الفرسان الذين يحامون على حبيبته فيعز عليه الوصول إليها(٣) ، فهى منهم فى منعة وحصن حصين .

وحين يرثى شيخه أبامضر يستطرد واصفا فرسان قومه بنى ضبة وخيلهم وأسلحتهم ومعاركهم، فلو كان الموت يرده الشجعان لرده هؤلاء عن سيدهم .

وفى هذه الاستطرادات نحس شغف الزمخشرى بوصف المعارك والحديث عن الفرسان وشجاعتهم، حتى إنه ليلتمس لها المناسبة بل يصطنعها اصطناعا ، ولايلبث القارئ أن يتخيل المعركة وقد احتدمت فيحس بسالة الفرسان ، ويسمع صهيل الخيل ، ويقرع سمعه صليل السيوف وصرير الرماح ، ويغشى بصره متطاير العجاج .

وصف القلم :

والزمخشرى صاحب قلم ، للقلم عنده أهمية كبيرة ، فهو رمز العلم والأدب ، وسلاح العالم والأديب، فإذا كان ممدوحه من ذوى الأقلام زاد قدرا وعلا شأنا فى نظره ، ووصف قلمه ، وأثر مايسطّر به .

وصف الزمخشرى القلم فى مواطن كثيرة من شعره وصفا أحاط بما يتصل به ، وصفه عندما كان نباتا فى حافات البطائح ، ووصفه وقد أصبح قلما يوضع بجانب المحبرة أو يتقلب فى أنمل الكاتب ، وأكثر من الحديث عن أثر مايكتبه فهو سم الأعداء وترياق الأولياء .

١- الديوان ٣٦٦ .
٢- الديوان ٥٤ .
٣- الديوان ٣٥٠ - ٣٥١ .

ومن نماذج وصف القلم قوله فى مدح مؤيد الملك:

نظّام شمل الأولياء ، ممزّق ... لطوابق الأعداء كل ممزّق
بأصمّ يقرى السُّمّ والتّرياق فى ... نابيه فعلَ الأُفعوان المُطْرق
متقلب فى أنْملٍ مبسوطة ... فكأنها لسوى الندى لم تُخْلَق
هذى اليراعة ماأشد عزيمها ... ليس الذى فعلتْ بفعل الأخرق
عن بعض حافات البطائح سافرت ... فتخيمت فى سِيف بحر مغرق(١)

وفى وصف آخر لقوة أثره يقول :

تخر له واردات القنا ... إذا ماانثنى صادرا عن دواة
فلو قارع اللهذم السنُّ منه ... لارتدَّ عنه كليلَ الشباة
يَصِرُّ فيُخْفِتُ منه الصَّرير ... صريرَ المهندة المنتضاة(٢)

١- الديوان ٣٣٨ .
٢- الديوان ٥٢١ .

الفصل التاسع

الزهد

سبق الحديث عن زهد الزمخشرى فى الطور الثانى لحياته ، بعد أن أبل من مرضته الناهكة أوالمنذرة كما سماها ، وكان ذلك وفاء بما عاهد عليه ربه إن من عليه بالشفاء منها .(١)

ومقاماته التى ألفها فى بداية هذا الطور تعكس نزعة الزهد القوية عنده ، فقد كتبها يعظ بها نفسه وينهاها عن أن تركن إلى ديدنها الأول بفكر وذكر له إلا على سبيل الندم والتحسر(٢).. ومما قاله لنفسه فى مقامة التقوى: «يا أبا القاسم ، العمر قصير وإلى الله المصير ، فما هذا التقصير ، إن زبرج الدنيا قد أضلك ، وشيطان الهوى قد استزلك، ألا إن الأحجى بك أن تلوذ بالركن الأقوى ، ولا ركن أقوى من ركن التقوى» (٣) .

وفى مقامة الرضوان: «يا أبا القاسم : أجل مكتوب، وأمل مكذوب أنت بين أمرين: لذة ساعة بعدها قرع السن والسقوط فى اليد ، ومشقة ساعة يتلوها الرضوان وغبطة الأبد»(٤)

وفى مقامة الزاد : «ياأبا القاسم . اترك الدنيا قبل أن تتركك ، وافركها قبل أن تفركك، طلق القائلة بملء فيها : أنا غدارة غرارة خيالة ، ختاره ، وما الفائل رأيه إلا من رآنى على الأخرى مختارة» .(٥)

وفى مقامة الزهد يقول عن الدنيا: «ماهى إلا سم ذعاف بالعسل مموه، منغصة المسار لم تخل من أذى ، مطروقة المشارب لم تصف من قذى»(٦)

١- انظر ص ٧٣ - ٧٤ من هذه الدراسة .

٢- مقامات الزمخشرى ص ٨ ، ٩

٣- المصدر السابق ١٥ .

٤- المصدر السابق ص ١٧ .

٥- مقامات الزمخشرى ص ٢٢ ، ٢٣ .

٦- المصدر السابق ٢٥ .

وتمضى مقاماته على هذا النهج ، تزهيدا فى الدنيا ، وتذكيرا بالموت ، وحثا على التقوى وإيثار الآخرة على الأولى .

وفى شعر الزمخشرى مايدل على أنه كان يحيا حياة الزاهدين الصالحين، فقد عاف الهوى وتمسك بالتقوى ، وآثر شظف الحياة طمعا فى نعيم الآخرة يقول فى ذلك :

عفتُ الهوى وعففتُ عنه واقيا ... عرضى بدرع من تقاى رصين
وزويت عن بيض الدمى شغفى إلى ... بيض العلا وتطربى وحنينى
وركضت فى جلباب آبائى الألى ... عُرفوا بشأو فى العفاف بطين
أبغى حياة مُبَطَّن فى غِبِّها ... درك السعادة لاحياةَ بطين
ماضر من كانت غثاثة عيشه ... سببا إلى شرف يُنال سمين
وسلافةٍ طاشت بلبٍّ سقاتها ... فثنتْ رزين الحلم غير رزين
كتبت بنانُ اللهو فى كاساتها ... مبتاعها بالروح غيرُ غبين
طلَّقتها تأميلَ خمرٍ لذة ... للشاربين وخيفةَ الغسلين(١)

وقنع بالحياة فى منزل صغير متمنيا لو كان له فى الفردوس بيت مثله أو أصغر منه :

ليت لى فى جنة الفردوس بيتا ... مثل هذا البيت أو أصغر منه
حسب عبد الله أفحوص قطاة ... بعد أن يرزق عفو الله عنه(٢)

وإذا كان الزمخشرى قد نزع إلى الزهد وآثره مسلكا راض عليه نفسه، فقد أشاد بمظاهره ودعا إليه فى شعره ، حتى إنه ليفرد له قصيدة يسميها «الزهدية»(٣)

١- الديوان ٣٤٨ .
٢- الديوان ٤٤٣ .
٣- الديوان ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

يبدؤها بأبيات يتغزل فيها بحبيبة عرضت له فى صواحبها مياسة الذيل فواحة المسك، ولكن الحيْن فى عينيها ، وأغلب الظن أنه يرمز بهذه الحبيبة الفاتنة المهلكة إلى الدنيا التى تخدع الناس بمفاتنها ، يقول فى هذه الفاتنة :

عرضتْ لى فى ملاعبها ... مع سربٍ من صواحبها
تَركُضُ الأذيالَ رافلةً ... والنواشى من جوانبها
وغبار المسك تُرهجه ... مستطيرا فى مساحبها
لدنة العطفين يقصفها ... رقةٌ هزٌ مناكبها
كلما مِسن بها عثرت ... فى فضول من ذوائبها
صدأ الذهنَ تبصُرُ ما ... لاح من صقِل ترائبها
عينها الحَيْنُ متى أرسلت ... نبلها عن قوس حاجبها(١)

وبعد هذه المقدمة ينتقل إلى الحديث إلى بنى الدنيا كاشفا لهم عن غدر دنياهم وعن غفلتهم حين يسرفون فى حبها على حين تشرف هى فى رميهم بالمصائب ، فيقول :

يابنى الدنيا كفى عِبَراً ... ماتريكم من عجائبها
غُمستَ فى حبُكم ، ولقد ... غمستكم فى مصائبها
حسبكم أن جماجمكم ... صحنت تحت نوائبها
ولياليها مطيكم ... كلها تخدى براكبها
نحو مورود موارده ... حرّمت مصدرَ شاربها
وأدت من ولدت بعدما ... جرعته من شوائبها
إن فى أنيابها لكم ... كلَّ شر ومخالبها(٢)

١- الديوان ٢٠٣ .

٢- الديوان ٢٠٤ .

ثم يختم القصيدة بأبيات يعلن فيها توبته طالبا من الله المغفرة والرحمة وحسن الخاتمة.

وله غير هذه القصيدة أبيات فى الزهد تأتى فى قصائد الرثاء والتعزية، وقد تأتى فى قصائد المدح والفخر .

ومعانيه فيها تدور حول الزهد فى الدنيا ، والتنفير من غوايتها ، والتنبيه إلى غدرها والتذكير بالموت والحساب ، والنصح بإيثار الآخرة والتزود لها بخير الزاد .

ومن هذه الأبيات ماقاله يزهد فى مباهج الدنيا ويحث على التزود للآخرة :

ضعوا سرابيل أعجبتم بِلبْستها إن التقى - لوعلمتم - خيرُ سربال
أمامكم أبعد الأسفار فاحتقبوا زادا ، ولازاد إلا حسن أعمال(١)

ومنها يزهد فى الغنى مؤثرا عليه الفقر إذا عصم الإنسان من المعاصى :

وما الذى يغنى عن المرء عزُّه ولو ملك الدنيا إذا دخل القبرا
إذا عصم الفقرُ الفتى من ركوبه معاصى مولاه فما أحسن الفقرا(٢)

ومنها يزهد فى تشييد القصور :

أيا عامرا لقصر المشيد رافعا علاليه قل لى فمن يعمر العمرا
لقد رفع الإيوانَ كسرى فهل حمى أوان أتاه الموتُ إيوانهُ كسرى(٣)

ويزهد فى الأولاد وبناء الدور فى أبيات تعكس نظرة متأملة ، وفكرا عميقا ينفذ إلى حقائق الأمور، متجاوزا ماتعارف عليه الناس من أن السعادة فى إنجاب الأولاد وتشييد البنيان، وذلك حيث يقول :

وأسعد الناس ناس قطُّ ماولدوا ولاغدواْ لخراب الأرض عمّارا
فلم يذوقوا بأولاود إذا نقرضوا ثُكْلاً ، ولا راعهم بيتُ إذا انهارا

١- الديوان ٢٥٠ . ٢- الديوان ١٠٦ .
٣- الديوان ١٠٦ .

من طيب الزاد والوشى النفيس رَضُوا بأن ينالوا بها قوتا وأطمارا

ما استعبدت شهوة الدنيا نفوسهم حتى طوتهم يمينُ الموت أحرارا(١)

وهكذا تكون سعادة الإنسان الحقيقية فى الزهد والتخفف من قيود الحياة، فمن لا ولد له لن يذوق ألم الثكل فى يوم من الأيام ، ومن لاقصر له لن يروع بانهيار بيته يوما ما ، ومن ترفع عن الدنيا عاش حرا ومات حرا، فنحن هنا أمام فلسفة الزهد، إنه ليس سبيلا إلى رضا الله والسعادة فى الآخرة فحسب، بل إن فيه سعادة الدنيا كذلك .

١- الديوان ٢٥٣ .